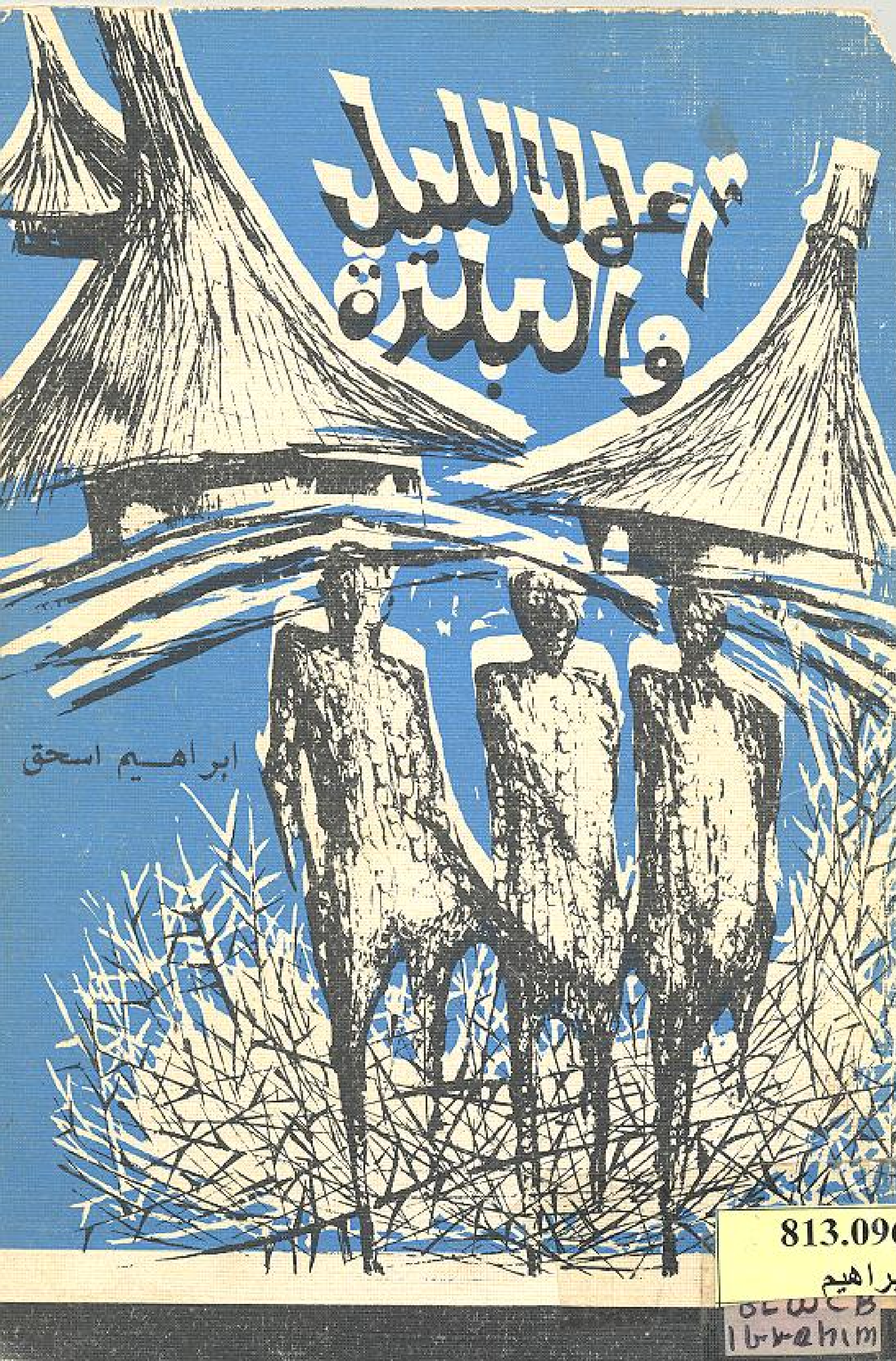

اعمال الليل
والبلدة
ابراهيم اسحق

أعمال الليل والبلدة

الـــى :

مصطــفى مبــارك مصطــفى

ابراهـيم اسـحق ابراهـيم

أعمال الليـــل والبلدة

«عندما وقفت الشمس ثابتة ، إثر دعوات إنسان ، حتى يحارب في معركة ويفـوز فيهـا ، وقفت ثابتة حقـاً لكن الـزمن إستمر في سـيره ، إستمر عـبر الوسعة الضـرورية للمحاربة في تلـك المعـركة والوصول بها إلى نتائجها . »

القديس أوجستين

قسم التأليف والنشر
جامعة الخرطوم

قسم التأليف والنشر
جامعة الخرطوم
ص . ب . ٣٢١
جمهورية السودان الديمقراطية

الطبعة الاولى ١٩٧١

الطابعــون
دار الطباعــة
قسم التأليف والنشر
جامعة الخرطوم

البلدة

إرتفعت الهمهمات من بيت الحاج أحمد وراء بيت عبد القادر ووراء بيت كلتومه ، وزادت فجاء في بالي أنهم يختلفون ويحتدون . رأس شجرتنا لم يصفر بعد ، في وسطها المخضر تسمع صوت العصافير ولاتراها في ظلام الفروع والأغصان الداكنة . إستقامت الأصوات في ذلك الإرتفاع الذي يهمهم عند منزلنا ، تنزل في منتصفها وترتفع حيناً ، في البداية أو النهاية ، ويبين الإحتداد الطويل لأصوات عديدة متناوبة ، ويلغطون مرة في جملتهم فيصل منهم عندنا جدال غير عادي .

حافظت بصبر تام على مرقدي بينما خرجت والدتي من الباب وغابت حتى طالت مدة على خروجها ، وعادت فدخلت . لم تنظر ناحيتي غير لمحة ، عند إستدارة وجهها ناحية الركن تعدد بعجله العفش الذي تركه جليل . من وراء ركن النار تجلس تتسمع إلى الهمهمات والإحتدادات ، نتابع كلانا البرود الكامل لفترة في الحركة ، حتى يتأكد عند كل منا أن الصباح قد أثار غلطة أحد أفراد بيت الحاج ، وأنهك التقريع والتدافع مالم يعد يقبل غير ذلك فهبط جميعهم ليفعلوا شيئاً آخر . العصافير التي تتنادى في الغصون عمها الضياء والنور وتفرقت حتى جلست بعضها على الأعواد العالية في الحوش ، تتلفت بيقظة .

غير أن الحركة تجددت ، تجذب كلينا ، زائدة بعددها وتوقيعها ، في وسطها يعلو على تجزيئات الرقة القاطعة لكلام عبد الرحيم بسوس . والدتي من وراء الحاجز قابعة تتسمع إليهم ، وأتمدد متمطياً عند مرقدي ، لا أرى العصافير التي تلعب فوق الأعواد العالية . كل ثلاثة أقوال مرتفعة يدخل الحديث منهما فجأة في أشياء كالقصب والتكاثر والتشريط . كأنما القصب في بيت حاج أحمد تكاثر إلى الحد الذي يجعل المتغالطين يجتمعون

من رغبته مبكرين هذا الصباح يتغالطون فى سبل إزالته . كلما قل الجدال وانخفض تسنى لى أن أشعر بها وراء حاجز النار ، تريدني أن أبقى فى مكاني حتى يتحرك الناس ، وربما حتى يأتي عمر أو ربما حتى يواتيها غرض تشغلنى به . طفرات الكلام المتدافع تحير البال ، مع إتساع الإصفرار وتحول الدفء من ركن إلى ركن ، تتزايد الأصوات وتتنوع ، وتزيد طفرات الأصوات تباعداً وشدة ، ثم يبدو وكأن البيوت كلها ترهف آذانها متسمعة . خرج منهم إليهم من شاء ، ينتظرون الضوء أن يصبح ضحى وينشط الناس فى شئونهم بين البيوت فيعرفون دون قصد مايخرج للناس اليوم من بيت حاج أحمد .

دخلت من مكانها إلى الحوش البعيد فلبست جبتى فى عجلة وخرجت حافياً من الباب المفتوح . سيتأخر عمر كالعادة مع البقر وأستطيع أن أعرف ثم أعود ، أنظر إلى البيوت والأشواك المرمية أمامها وإلى واحد أو آخر من الرجال والنساء يقفون ، أيديهم على أوساطهم ينظرون فى إتجاه الحركة ، ولم ألف وراء بيت كلتومه حتى رأيت وكيل الأمباشى وأربعة رجال آخرين فى خطواتهم السريعة يتخطون بوابة الشوك ويدخلون بيت حاج أحمد . بين التوقف والإسراع مشيت فى خطوط متقاطعة ثم حمت خلف البوابة ، أنظر إلى الداخل فلا أرى أحداً والحركة تهدأ درجة فدرجة ويحتار بالى فى كل الأمر ، لاأحسب غير أن أقف أو أدور بالخارج محتاراً . أقوالهم تناقصت إلى حد الندرة فتقارب كلامهم وتداخل فى الهمهمة الخفيفة ، ثم تحرك بأجمعه من الطرف الخلفى للبيت إلى اليسار ، وأنا واقف غير مقرر غير محدد لما أفعل ، وأصبح فى اليمين وعاد أيضا إلى اليسار . فى تجوالهم أتابعهم بيقظة محاولاً إستجلاء أقوالهم فيشغلنى عن الكلمات تحركاتهم من جهة إلى جهة ، كلما إستدرت واجهنى الوقوف فى فسحات بيوتهم وشعرت بغرابة ما أفعله ، واقفا ثابتاً قرب بوابة الشوك أتلفت متخوفاً .

إقترب التجوال من خلف البيت إلى ناحية قرب المدخل ، صوت

وكيل الأمباشي خافتاً متقدماً على بقيتهم ، لا أجد أثراً للنبرات المنغنخة في كلام الحاج . الغلطة البسيطة لأحد أفراد بيته غير معقول الآن ، وكيل الامباشي (مسرعاً كل تلك السرعة) لم يأت لشيئ تافه ، ثم أن هنالك كثرتهم يزحفون تجاه المدخل في مجموعهم آونة إثر آونة . درت حول نفسي فوجدت محمود ورائي . في إشتياقي المتسرع لأن أتقوى به كدت أن أبدأه بقول ما لا أذكره ، ووضع من نفسه وجهه في حركة الكلام ، ثم ظهر جسد وكيل الأمباشي وراء عمود المدخل وراء بوابة الشوك ، ومن بعده تقدم عبد القادر وأحمد فضيل وأتي بعدهما بسوس . العصا الرقيقه في يد وكيل الأمباشي تمس الأرض أو تقاربها، ويشير عبد الرحمن إلى الموضع بأصبعه ، على وجوههم أجمعين جد وإهتمام ، تتواثب نظراتهم في الرمل أمامهم كل ناحية لإتساع غير محدود . خرجت خطاهم إلى الفناء بين المدخل وبوابة الشوك، ووقفوا لمدة عند مواطئ أقدامنا على الطريق يشيرون صامتين مستديرين مقبلين ومتفرقين .

من ظهر بيت أم عجب رفع سالم يده وراء ظهره ، منحنياً محدقاً عند حافة الشوك . تجمع الكل عنده ، ووصلنا إلى جانب منهم فرأينا مؤشر وكيل الأمباشي يحوم فوق أثر حافر عميق إنغرز بطريقة جانبية في ركام الرمل تحت الشوك ونزع (مرفوعاً في سرعة ، غير مرتكز على عدل) عدة أشواك لفحت على الباقيات . وإمتدت النظرات على الطريق الجانبي دون السبيل العام المنقر من الحافة إلى الحافة بأظلاف الماشية . الحافر العميق بان ثانية قرب جانب الطريق واسعاً معتدلاً على الرمل حيث أشر عليه كل من عبد القادر وأحمد فضيل ، حدقنا فيه ووصلوا منه إلى موقف عبد الرحمن المتقدم . حولت مكاني بعد أربعة حوافر أخرى عند ملتقى الطريق بالممشى الموصل في إتجاه منزلنا، فسرت وراء أحمد فضيل مباشرة نتبع وكيل الأمباشي، الآخرون في ناحية ، يبعد عنهم سالم وعبد الرحمن . بقيت الحوافر عميقة متقافزة فاقدة الإعتدال على طول الطريق الرقيق إلى ماوراء عشرة بيوت

أو أكثر ، وتقاطع الطريق مع شارع ينتهى بعد ثلاثة بيوت عند طرف المنازل ، وعندها وقفنا كلنا نحاول أن نجد أين تسير الحوافر .

إجتمع الآخرون فى ناحية ، وبقى سالم وبسوس ووكيل الأمباشى يدورون وسط موقع الإلتقاء حيث وقعت الحوافر بأعداد لاتحصى . إعتدل الأثر حينا وتعمق فى التراب ورقد فى بعضها الجزء الأمامى الحاد غائصاً دون أن يبين أثر لبقية الحافر ، ثم تباعدت الآثار يميناً وشمالاً كما دارت عدة دورات منتظمة واضحة حول محور فى قلب التقاطع . خرج أفراد متحمسون إلى الموقع وظلوا يدورون مع الأولين ، بينما ذهب عبد الرحمن فى رأس الشارع تجاه طرف المنازل ، يده بأصبعها الرقيق تقفز فى الهواء من إتجاه إلى العكس . نادى على وكيل الأمباشى عند ركن البيت الأخير . مضى الرجل مهرولاً وتبعناه مع أحمد فضيل نسير جنباً إلى جنب فى هدوء ، أشعر بمحمود ورائي صامتاً متتبعاً . عند الموقع جلس عبد الرحمن على أمشاطه ولف أصبعه حول أثر قدم طويلة الأصابع مجوفة البطن بان منها جلياً الصدر والعقب ، بها التواء طفيف إلى الداخل ، يتابع وكيل الأمباشى إشاراته فى وعى تام صامت . وضع يده على ركبته فإتكأ عليها وأشار بيده الأخرى ممطوطه إلى قدم أخرى تبعد مسافة عن الأولى ، أثر كامل الضغط فوق الرمل ذات أصابع أقل قصراً منغرزة فى التراب كأن لها عروقاً ، بيضاوية منسلبة فى العقب شتتت التراب عند لمس الأرض . أحمد فضيل ينظر بعيداً عنهما فلا نرى فى الطريق وعلى الطرف الممتد سوى نقر آثار الماشيه . رفع وكيل الأمباشى عصاه فتوافد الآخرون ، وترك سالم وأصحابه موقعهم بكلفة ووصلوا عندنا . أقام سالم عن الأثرين رأسه .

— هم . . لكن درب الجواد ؟

لحق بعبد الرحمن سالم ، متتبعين الأثرين متباعدين ، كل بقية الأفراد يميلون على جنوبهم يتفقدون على الأرض قرب الحيشان وعلى الطريق أثر

الحافر الغليظ . ثم علت يد عبد الرحمن فوق رأسه فإنسحب الناس تجاههما . بين أشواك المنازل والطريق سار أثر القدمين متحازيين ، القدم الممتلئة على حافة المنازل ، وعبد الرحمن يشير بأصابعه الرقيقة على قطعة نصفية من أثر الحافر فى قلب الطريق يبعد عن الأثرين عدة أقدام . كلما مشى سالم على الأثرين عدة خطى إنحنى عبد الرحمن على الطريق بين دروب الماشية ثم رفع رأسه مشيراً إلى أثر منسحق للحافر العميق . ونحن ثم وكيل الأمباشى والآخرون نتبعهم فى شبه صمت نسير جمعنا فى حركة بطيئة متعبة . أطل علينا رجال من أطراف المنازل وتحركت خلف الحيشان نسوة ووقف الصبيه على الأبواب ينظرون إلينا ، يخالوننا وراء إحدى الأغلاط التى كنا ووالدتي نفكر فيها . الضحى أخرج الناس من البيوت لكنهم لم يتحرقوا قط للدخول فى أغلاط الآخرين . فى مرورنا على الطريق تملأ حركة البيوت آذاننا دون أن نهتم بحبة منها خارج متابعة الآثار وإشارات يد الرجل إلى قطع الأثر على انطريق فى محازاة السائرين . تأخرت حركة المنازل عنا وإستمر سالم متقدماً ونحن فى أعقابه فإخترقنا شجرات اللالوب المتفرقة وبدأ الرمل يهبط فبان بعد قمة العالى إمتداد العتمور .

بغتة ، إنتهى الطريق وإنفردت أظلاف المواشى فى طريق الآبار فإتضحت الحوافر الأربعة متتالية متجادعة جلية المعالم بالغة العمق على الرمل المقوس عند العالى ، متباعدة عن خطوات الأثرين ، يكادان يجتمعان فى السير عند تلك البقعة . صار القص عفوياً فإنضم المجموع فى بعضه ولم يعد يقود الركب أحد فعلونا رأس التلة وظهر قعر الأرض القوية السوداء حيث تبدأ الحافة القمحية رقيقة متعرجة عند الإلتقاء بالرمل المتزلق . محيطين بالآثار المنغرسة غير الواضحة تدلينا إلى القعر مسرعين يكاد البعض ينتطط كأنه مدفوع من خلفه ، أمسك بيد أحمد فضيل بقوة دون أن أدرى وورائي عند كعبى محمود .

إسترجع عبد الرحمن أنفاسه متأخراً وسالم يقف مستقيماً رافعاً رأسه إلى المنعطف البعيد نستنبط متوقعين للطنين القصى من جهة المدينة . على الحافة القمحية إنحنى عبد الرحمن فسار من الرمل عدة خطوات أمامه ووقف ثم طق أصبعيه منادياً . ريثما يلحق به وكيل الأمباشى وبسوس كان قد جلس على أمشاطه، فتركت يد أحمد فضيل وذهبت إليهم. إقترب الطنين أكثر فأكثر وإرتفع شريط الغبار على الشارع خلف التلة فإستند كل من وكيل الأمباشى وبسوس على ركبته منحنياً وظل وجهه متجهاً إلى المنعطف البعيد وتوقفت وراءهم حين ظهرت العربة الغبشاء عند حافة الرمل الملاصق للقعر فى السراب . إندفعت فى الإمتداد الطينى المنحنى على البلدة فى لمحة وأظلها عنا التل الآخر، وسمعنا تغير صوتها على رمل العالى وهى ترتقى إلى البلدة . دار صوتها من إتجاه الشارع الوسيط إلى الشمال وهدأت فى مكان ما على فسحة مبنى المحكمة .

إتجه المجموع إلى موقع عبد الرحمن ، تمتد أصابعه الدقيقة فوق الأثرين على جوانب الحوافر المستقيمه فى تربيعة ثابتة . إرتبك ذلك النظام عدة خطوات ثم أحاط الأثران من جديد بالتربيعة الهادئة للحوافر غير الواضحة تماماً على التربة القمحية الصلبة . إضطرب النظام ثالثة ولم يظهر سوى تجدعات خطوات القدمين بين حافرين ظاهرين منغرزا العقبين ، تتناقل من إتجاه إلى إتجاه بطريقة عشوائية . وارتمت القدم النحيله على جانب من الحوافر الأربعة ، قدماً واحدة ، وخلفه مباشرة ظهر القدمان الممتلئتان ، منها إنحنى الأثر الممتلئ بعيداً ولم يظهر شئ من الأثر النحيل بعد ذلك فى الجوار القريب .

أشر وكيل الأمباشى لبسوس على قطعة من خرقة مبرقعة تغطيها بقع بنيه ترتمى جانباً ، ورفعها عبد الرحيم ثم أفردها فنظر فيها طويلاً وشمها فانكمش أنفه على جرف عينيه وتخططت جبهته وعندئذ ناولها إلى وكيل الأمباشى . أعاد وكيل الأمباشى عمليات بسوس على الخرقة ورماها على

الأرض وراءه وسار تجاه سالم الذى خرج بالآثار من الموقع الركيك . عند مسقط مؤشره ينبطح الأثر الممتلئ البيضاوى ذو الكعب المنسلب متوالياً عبر الطينة ، وعلى بعد منه يقع الحافر متوثباً بلا إستقامة يتأرجح يميناً وشمالاً ويدور ثم يسير فى محازاة القدم الممتلئة . من ورائنا قال واحد من المتتبعين .

— تاني مابقيفو . .

رفع وكيل الأمباشى بصره فغطى إمتداد العتمور يمنة ويساراً وقبع عند الأفق والتفت ناحية سالم .

— خليكم تابعين لما يلبسو جزمهم . .

قاد سالم المسير واتبعناه وابتعدنا عن التلال ، وعندما رفع عبد الرحمن من الناحية الموازية يده فوقفنا كانت الآبار قد أصبحت على يسارنا فى البعد . دون أن يحس سالم فى تقدمه بالمناداة إنحرف واتجه إلى موقع الرجل المنحنى رافعاً ذراعه فوق ظهره . إرتكز حافران جليان على الطينه ثلاثة مواقع ونزلت حوافر ثنائية بعيدة ثم أبعد ثم أبعـــد وإضطر عبد الرحمن إلى فتح المجال بين ساقيه إلى الحد الأقصى والإسراع مما جعل جسمه كله ينزل على إنشلاخ وركيه يكاد يسقط جسده كله لولا سرعة تحركه منهاراً على الطينه ، وابتعد مندفعاً كأنه يسابق تحته فروجة غير مرئية . تجمع واقفاً فى موقع بعيد رافعاً رأسه فى الإتجاه الأول ودار حول نفسه فسار مسافة ثم أفرد يده مستقيمة أمامه وعاد إلينا يخطو بسرعة وإتساع ، عيناه ملتصقتان بالحوافر الثنائية المعكوسة فى وضع آيب . والتقى سالم وعبد الرحمن ناحية منا فلحقنا بهما .

تقابل أثر القدمين فى ثلاثة مواضع وظلت الحوافر تدور حول نقاط الإلتقاء فى كل إتجاه ، يفصل بين الأقدام المتقابلات فجوة بسيطة . وكيل الأمباشى يتبع سالم وعبد الرحمن وكأنه غير مصدق ، كأنه يريد أن يفترض أن الأثرين قد لبسا أحذية فى موقع ما ولم يلحظاهما ، يتلفت مثل الذى

يتمنى أن يعود أدراجه إلى شيئٍ تركه غير متأكد منه متخوف عليه . سارت خطوات القدمين متقاربتين مسافة من المكان وتحولا فأحاطا بالحوافر المتجادعة فى ربكة وقام قدم ممتلئٌ وحيد على جانب الحوافر الأربعة ومالت الخطوات الرقيقة عنهم فوقفت ساكنة . تقافزت الحوافر فى إتجاهين وإنحرفت فى ثالث وكثرت وبعدها تباعدت وامتدت فى العتمور صاعدة نحو الأفق . لم يتابعها سالم كثيراً ومال على جانب فإلتقى بالأثر الآيب وعاد به . ووقف فجأة . مط رقبته إلى اليمين لمدة وترك بعدها ماكان يفعله ومشى يساراً . حيث يسير ظهر لنا خط رقيق من موقفنا معتدل حالك السواد ، كأنه شرخ مستقيم لانهائي على طول الأرض الغبشاء . وصل سالم إلى طرف الشريط الأسود وبقى ينظر يمنة ويسرة فى إتجاهى إمتداده وتابع من مواطئ قدميه أحد الطرفين مسافة بسيطة ، وتوقف هنالك فدام فيه . لمس وكيل الأمباشي يد عبد الرحمن مرتبكاً :

ــ شوف الدرب . .

لم يستغرق الرجل وقتاً ، واتبعناه على الآثار الثلاثة نتلوى إلى المكان الذى يقف فيه سالم وتوقفنا نحدق ساكتين فى الشريط الحالك ، نحدق صامتين جامدين حين دمدم الرجل الواقف من ورائي :

ــ يارب السموات !

كان أول المتحركين أخيراً أحمد فضيل ، مشى إلى طرف الشريط فأفرد ساقه ممطوطة أمامه بجهد أخير وخطى على العرض واحد خطوة ، إثنتين ، ثلاثة ووصل الثلاثة عشر حيث وضع قدمه على الطرف الغبشاوى فى الناحية الأخرى . جلس على كعبيه وهز رأسه ثم جذب يد جبته ومد يده فأفردها من الطرف نحونا وبدأ يعد الحوافر أسفل يده ولم أستطع متابعة تعداده . إنقلب فى جلسته ومدها على طول الشريط المنقر وبدأ يحسب ولم أقدر على متابعته . مال بسوس على جنبه فرن صوته الرقيق فى أذني .

— كدا أجرى يا عثمان أقيف لينا فى آخرو . . أجرى . .

حازيت الطرف وجريت ، النقر العميقة المتداخلة للحافر العميق كثرت فى بصرى وأنا أجرى فخيل إلىّ أن العرض غير محدود وأننى تعبت ولم أجد مكان توقفى . وعندما وقفت كانت الآبار القريبة منى لاتبعد أكثر من ثلاثين ياردة . صار جمع الناس متداخلاً فى نظرى ومع الدوران فى بصرى يغلف قصرهم شيئ من الإهتزاز والتموج . إنشطروا ثلاثة أجزاء فسار بعضهم إلى اليمين وسار آخرون إلى اليسار ودخل البعض وسط الشريط المسود ، يرفعون أقدامهم وينزلونها على النقر كأنهم يسيرون فوق حجارة مسننه ، يكاد وكيل الأمباشى نفسه يقع على وجهه متباطئاً بينهم . أنتظرهم فى مكاني أحاول أن أستمع إلى وقع خطواته على النقر فلا أجد إلا تقدمهم البطيئ ، منحنين يحدقون فى قطع الطينة المنقلبة على الشريط وغيرها المتبعثرة عند الحافتين . رجل وطفل فى الآبار تركا سقايتهما ووقفا ينظران إلينا ، يتعجبان على الغلط الثائر مفاجأة فى هدوء المكان . كلما إبتعدوا عن النقطة التى جريت منها تاركهم وقوفاً إنسحبت البقعة إلى الوراء وضاعت فى إمتداد العتمور ملتصقة بالسراب البعيد ، ولاأجد عند ذاك أين كانت البداية التى جريت منها على طول ركام الحوافر تاركهم . إقتربوا فبدأت أتسمع كلامهم ، ذلك الرجل عاد يقول .

— رحمة ياربي . . الناس ديل ماعندهم قلوب ؟ ! .

إستداروا عند نهاية موقفى فنظروا على طول الخط الحالك صامتين ، كأنهم لم يعرفوا بعد ما إذا ماتمت المسألة ، حينها تلفت وكيل الأمباشى إلى سالم ولم يمهله الرجل يقولها له فاستدار عنه وانحنى عند الأطراف وسار فى إتجاه الآبار . تنبه وكيل الأمباشى عن النظرة الأخيرة التى ألقاها على الشريط فلمس يد عبد الرحمن وتنبه بسوس من نفسه ثم تتابع جمعنا خلف سالم . الآثار الثلاثه عادت فانجلت ، تسير الأقدام متزنة متواقعه والخطوط

الرقيقة للحافر تتبعهم فى منحى واحد . الحافر خفيفاً يطأ فوق الأقدام ، لم يرتبك فيما بينه ولم يتواقع على بعضه قط ولم يزغ عن إتباعه القويم .

تأرجح السير من ناحية إلى ناحية فلم نقابل البئر الأولى ، وعلى بعد منها وقف الأثر الرقيق والحوافر وابتعدت عنهما دائرة حول البئر القدم الممتلئة . على الجانب الآخر أطل سالم فى حفرة مهدمة لهويرة مندفنه تقبع فيها عيدان للنار وأكوام من القش الأصفر وفى ركن آخر ينكفئ طشت ثقيل تبين من تحته حبال دلو مبتلة . آثار القدم الممتلئة نزلت من جانب وخرجت من الجهة الثانية وعادت فبركت عند الحافة جهة الطشت وابتعدت ، غير بعيد من فوهة البئر تركت آثار الحوافر مع عدد من الخطوات وحلقة مستديرة واسعة من المياه العكرة حيث رقد الطشت ثم رفع .

جاءت أظلاف الماشية من كل جهة على البئر فبدأت علائم الشك تظهر خطوطاً فوق جباه الدائرين حول موقفنا ، والتف دورانهم حولنا كأنهم يقتفون خيوطاً مشبوكة . ذهب عبد الرحمن أبعدهم ، جلس وقام وانحنى ثم إنقلب متشاغلاً ، ولم يفد سالم وأحمد فضيل ووكيل الأمباشى خبرهما أو سمعتهما . يقبل على الآبار بعض الساقين مبتعدين والضحى يوقع ناراً دافئة حارة على الجمع فيزداد إقتراب الكسل من حافة اليأس . وقف وكيل الأمباشى معتدلاً فى الوسط يدور حول الآخرين بالانظام مقلباً نظراته فى كل إتجاه ، العصا تنزل فوق جزمته برقة عالية فى توقيت طويل . نظر إلى ساعته منحنياً من رقبته لمدة ونادى :

— ياسالم ؟

تجمع المبتعدون على مهل كسالى كأنهم يعلمون بما سيقوله وكيل الأمباشى .

— تشوفو الدروب لو تلقوهم بعيد ولاقريب . إذا فى حاجه تبلغو

الأمباشى . . يعنى يكون عارف لو طلع شى . . يا خوانا كتر خير كم وربنا يجمع بيهم . .

خطا وكيل الأمباشى خطوته الأولى وثبت قدمه الثانية يستمع مع الآخرين إلى سالم يقول لبسوس وعبد الرحمن ومن حوله .

— مافى فايده . . رديس الصبح ضيع دربهم . . كن فى قصين تاني إلا يلفو من ورا . . بعيد مقاطعين على الدروب . . برضو يازول هم عارفنو كويس قادر قدريش . . مابخلو ليهم خبر قريب يتلقى . . شفتو براكم جنس الشغل الفى العتمور داك . .

أعدت يدى إلى يد أحمد فضيل ووازينا بسوس ووكيل الأمباشى فى رأس الجمع ، صامتين تفتش أعيننا على أطراف العالى مشتاقين للصعود . تكلم نفر منهم عند ظهورنا حتى قعر التل وصمتوا فى الإرتقاء تتهدج أنفاسهم ثم عاودوا حديثهم بين الشجيرات وبين الأشجار حتى أحاطت بنا الحيشان من جديد فخفتت أقوالهم ورجعت فأصبحت همهمة خافتة . مررنا على رجال يقفون أمام أبوابهم وتقاطع سيرنا مع أخرين يتنقلون فسلموا علينا ، فى نظراتهم المعرفة المحبوسة بذلك الغلط الذى يجمعنا ، ولم يتوقفوا لمساءلتنا فى أمر يخصنا دارين بقدومنا من التحت جهة الآبار . وحينما إنعطفنا على الشارع الفسيح وبان مبنى المحكمة شهدنا العربة المعفرة تقف فى الفسحة إلى الشرق ثابتة يصب صبيها شيئاً تحت غطائها ، يجلس أمام الدكاكين فى السوق بعضهم ينظرون إلينا وإلى أشياء أخرى . تفرقنا فى حركات متتالية فأسرع وكيل الأمباشى على طول الشارع وإنعطف بسوس إلى طرف السوق ودار المجموع مع سالم على الشارع الشرقى فإتبعناهم وأحمد فضيل ، صامتين .

قابلتنا الهمهمة من بيت الحاج فى الطريق الثالث ، مرتفعة بدنونا وصارت عند وصولنا إلى بوابة الشوك أحاديث مهتاجة غير محسوبه تمتد

من وراء المدخل إلى الجزء الخلفي عند الأمهات . نفنفات الحاج أحمد تعلو لبرهة وسط الجلبة الأمامية ثم تنزل وتعلو بعدها في الداخل وسط السيل الرقيق غير المنقطع لكلام النساء . ماسكاً بأصابع يد أحمد فضيل دخلنا ووقف سيرنا على جمع من الجالسين المتحدثين ، لم أسمع كلمة واحدة مما يقولون ، يطن في أذني اللغط ويتحرق كلي لأن أعرف ماذا يوجد بالداخل من بداية الآثار . كأنما أحمد فضيل سئم موقفنا فمررنا خلف المجموع الجالس ثم وراء مجموع آخر واقف وتركنا القطية على ظهرنا وعند لفة فاصل قصير مشتت القصب حتى منتصفه توقفنا . كان هنالك ود أم عجب وخاله وسالم ورجل آخر وولدان يقفون معتدلين ينظرون في الفجوة الموسعة في قعر الحوش ويميلون على جنوبهم أو ينحنون فتبين العيدان والأشواك من الخارج مبعثرة بعيداً عن الفجوة . قابضاً على أصابع أحمد فضيل ظللنا في مكاننا نراقب الفجوة كأننا ننتظر منها شيئاً ، ونلف رقابنا حوالينا عند حافة الحوش والفواصل حيث تغطت الأرض بآثار الناس .

من قلب التدفق الرقيق لكلام الأمهات يبين خافتاً من لحظة إلى لحظة نشيج شفاف مثل مواء قطة صغيرة مبتلة هائمة . أصيخ السمع إليه بين الأحاديث فينسرق لحظة وسط جلبتهن ثم يغطي عليه حديثهن كأنه لم يقم ولم يولد . إنفردت في موقفي عن أحمد فضيل وإمتلأ صدري بالتوقع للنشازة الرقيقة والحد الذي ينقطع فيه ويذوب عن مسامعي ، يتأكد لدى كل آونة حقيقة البكاء الصامت بالداخل . وإتكأت على عود كبير في الحوش خلف ظهر أحد الواقفين ساكناً أرفع عيني إلى رأس القطية أمامي دون أن أعي حتى يظهر النشيج واضحاً ويشملني الإنقباض ، أستمع بوضوح إلى نبرات الإجهاشات وماتدمدم به وسط الآهات ، ثم ينقطع كله بغتة . أسفل الكلام صوت تفريع خافت لايكاد يسمع ، لايستبين لي في التدقيق صدفة إلا الجلبة نفسها . وقف الحاج عند الفاصل المشتت القصب وردد بحـرارة .

— أبقو يا خوانا قدام على الجماعة أشربو الشاى . . كثر خيركم . .

إنتظم الأوائل فى تنظيم ثلاثي وإتبعت ولداً صغيراً عند كعبيه خارجين. عند الجمع درت حولهم ووقع عينى على عمر واقفاً مع الفكى عباس ولم أشهد جليل ، وعلى آثار الولد أمامى خرجنا الأثنين إلى بوابة الشوك حيث ذهب على وجهه ودرت بكل كسل على الركن بعد الأشواك وظهر لى طرف حوش منزلنا ، لاتزال العصافير تقفز من عود إلى عود دون أن تتنادى . أزلت كتلة الشوك من الباب ودفعته فدخلت ، خفيفاً ، فعلت بنفسها وعمر كذلك ماإرتكبت غلطتى مبكراً من أجله ، ولالوم . وراء الحاجز كان براد الشاى قرب الجمر ، وعلى الصحون الطعام ، جلست عند موضعها آكل بكسل ، منقبضاً . أنظر إلى العصافير وأفكر فى الذى سأفعله ، متمنياً ألاتصل إلى البيت قبل أن أكمل طعامى وأخرج إلى حامد ، والحركة هنالك تخف قليلاً وتهدأ الجلبة وتعود الأصوات إلى درجة الهمهمات ، يعم الهواء حرارة أكثر منها دفئاً ثم تنعدم الهمهمة نفسها عند منزلنا فأحتار فى نفسى ماذا يكون الآن .

النشيج فالإجهاشات والآهات تتداول فى بالى، ولم أعد أرفع الإبريق إلى يدى جالساً على كعبى عند ركن الحاجز ، وتنبهت منها إلى حركتها عند الباب ثم دخلت وذهبت ورائي إلى القطية وعادت إلى الحوش فانحنت على بعض الجرار . أكملت غسيلى فى عجلة ووقفت على قدمى ثابتاً أحاول أن أحدد الحركة الأولى ، وسرى هدؤها فى المكان فعرفت أنها تغاضت وأن بالها منشغل مثلى بما وجدته هنالك . النشيج والإجهاشات تضغط فى صدرى وأنظر إليها منحنية ، نفكر فى شيىء واحد ولاتحتاج من نفسها لأن تعرف أو أن تخبر .

— ستنا ؟

أدارت وجهها بهدوء من بين ذراعيها فى وسط الجرار ولم تحاول أكثر

من ذلك ، ثم أعادت وجهها إلى الموضع الأول مستمرة فى غسيلها متوقعة سؤالى التالى .

– ياتو البيكى جوا ؟

مستمرة فى وضعها وتشاغلها ، يخرج حديثها من بين ذراعيها هادئاً متزناً .

– حنونه وأم حنونه .

– بكاهم كتير مالو ؟

– حنونه زى قلبو دا شالو . . العيون ديل إلا سايلين . . سايلين ولابقيفو . . البنى كن الحاج ولاسوا ليهو حاجه والجواد داك ولاقبلو ليهم فى حوشهم يلايابيقى كويس . . وكن نفعت عقلو ولايبقى طيب كدى تاني تقول . . كلامو كلو البنى إلا « جوادنا . . هيبا جوادنا . . جوادنا الكبير . . جوادنا البدين . . تاني وين نلقا جوادنا الأرقش السميحون . . هيبا جوادنا » . . أم حنونه بايدو تسد الخشم دا . . كمان بمسكو خالاتو من إيدينو يهزو . . « يابنيتى الرجال زاتهم بفوتو . . أسكت كدى . . أبوك رسل بدرى شرق وغرب . . سافل وصعيد . . كلو جهه ليهم . . أصبرى كدى يابنيتى الله ذاتو يرمى البركه فى لمة الناس ديل ومناهم يرجع ليكم جوادكم فى مربطو . . بسلامتو وعافيتو كدى . .

توقفت فأزاحت إحدى الجرار إلى مكان آخر فى الحوش ، تشعر بي أقف منتظراً معاودتها لكلامها .

– مرقت خليتهم ماسكين فى البنى . . أم حنونه وقت تشيف العينين ورمانين والبكا كمان تقوم وتبكى . . خالتو كمان صدرو يقوم وشيف البكا . . إلا الحاج يدخل ليهم حتى يسكتو . . بس البنى

قلبو تقول ينقطع ساكت ببكى فى كرعينو . الجواد داك ناس ديل كلهم ولايبقو طيبين كن ولارجعو لبيت سيدو داك . .

أخذت إحدى جرارها ودخلت بعيداً فى الحوش وعرفت أنها إكتفت لن تخرج حبة من بقية ماعندها لى بعد ما أخرجته . صدرى لايزال يموج بالإنقباض والحيرة ، إبتعدت إلى مكان مرقدى فرفعت الأغطية التى لفتها بعد مغادرتي ولاحظت غياب عفش جليل ثم سمعت الحركة على قصب الحوش ، مرتين ، مرة واحدة ، وثلاث مرات . أسرعت إلى الراكوبة فوضعت اللفة على العنقريب ولم أصل إلى مكان مراكيبى حتى سمعت صوت حامد خافتاً خلف الاشواك .

— عثمان . . أجرى ياعثمان . .

المشارف

ـ أجرى أقول ليك ياعثمان . .

لم أدرك موضعه بعد واقفاً متجهاً نحو الركن حيث طلعت فأسرعت إليه . هرول لملاقاتي ، تتقبض يداه أمامه ويلهث بحرارة ، عيناه تحملقان في لهفة عارمة حول حركتي فيتملكني في سرعة مماثلة الشعور بعجب مايتدافع بداخله .

ـ عثمان تعال أوريك . .

ثم تحيطني لهفته ، يتقافز جسمه في فورة ، مندفعاً مبتعداً بي عن المكان في إتجاه إلى الشمال ، وأتعلق بما يلفظ أحاول أن أفهم مايحمله إلى من وسط تنفسه الهائج .

ـ وراء بيوتنا هناك . . الدومه قال هناك من الصبح . . أجرى نسبقهم نشيف . .

إتحدت خطواتنا وظلت يده تمسك معصمي بقوة ، يزيد لي مع تزايد خطانا وضوح مايحدثني به في تسابقه ، ويشملني تفهم تدريجي لما يكون هنالك إلى الشمال .

ـ لو شفت الدومه قال كان في الصبح بدرى لما . .

على الطرقات قلت الحركه في حر الضحى وتتزايد سرعتنا ويتكالب منه إلى مايرويه .

ـ قال كان الصباح ماطلع لما مرق في الباب واقف . .

الدومه هنالك واقف . يقف الدومه هنالك عند بابه أول الصباح ، قبل أن أستيقظ ، أو آن يذهب عمر لملاقاة البقر ، وسط نسائم البكريه ينظر أسفل

أشجار الخلاء وراء أطراف البيوت بعيداً حيث تتسرب الأضواء فى كسل تحت ظلام الأشجار، ويكسب رمل الأرض العارية بينها والبيوت لوناً أصفر تلمع فيه على تجدعات بقع خضراء من نبات السنسنى .

فى سمرة البكرية ظل واقفاً أمام الباب يتنسم البرودة والهدوء ويداول يديه مابين ظهره وواجهة صدره ممسوكتين ثم مترادفتين ثم منطلقتين على جانبيه ، حين وعى بغتة بما يفعل واستقر فى رأسه إنشغال آخر إتجه به نحو رزمة الشوك وراء زريبة الغنم وبدأ يفرق منها كتلاً فى الفضاء حواليه ، ثم قام الكلب بعيداً عنه وتمطى وارتجف وحام وراء ظهره .

عندما طاف دائرة الزريبة لاقته عيون القدود المظلمة من كل ناحية وتطاولت آذان المعزات من فوق الشوك تتابعه مقترباً ومبتعداً ، واختلط عليه الهمان فانهمك فى زرع القدود باركاً عند طرف الشوك أو منحنياً عليه معتبراً أمر المعزات وسط العمل الآخر . لم يحس تبدل الضوء والنسيم ، يكاد ينتهى من معايب الزريبة ، لاتزال المعزات تدور لملاقاته حيث يعمل ، آذانها واقفة إليه تثغو بخفوت ، عيونها الصفراء تهمز جسمه بحيوية عطشها . ولم يبال لمدة ، من ورائه فى بطن الأشجار البعيدة ، يصل إلى سمعه بلا إنتباه النداء المنزعج فى نباح الكلب . للمرة الثالثة دار حول الشوك ووقف مستروحاً ، إنزاح هم واحد كبير ، ورفع رأسه تجاه الأشجار ولم ير الكلب ، لايزال نباحه يتوالى منزعجاً متمطياً بتأوهات متشككة بالغة الإصرار . حجب الشمس المرتفعة على الجبل بيده وركز بصره تحت سيقان الأشجار وأداره إلى الشرق القصى حتى تعدى النباح إلى أقصى الغرب ، ثم بدأ عجب خفيف يجتاح فكره . ظل منتظراً فى مكانه يحدق تحت الأشجار وبين مسافاتها أن يخرج القادمون يواكبهم الكلب فى نباحه اللحوح . مستمراً فى وضعه الخفى وانزعاجه ، تصل تأوهاته الطويلة إليه فتحرك فيه تخوفاً غريباً عليه مما هنالك . أمهله مدة أخرى غير طويلة وسمع مناداة زوجته من الداخل بوعى تام وعاد فى باله النباح المستمر فسار قليلاً فى إتجاه سمعه وتوقف فنادى .

ـــ عارد . . عاربيد ؟ .

تردد النداء تحت الأشجار طويلاً واستمر خلاله وبعده على نفس المدى النباح والتأوهات فعاد ينادى ، ونادى مرة ثالثة ، وتوقف . كلما إنحنى مدارياً السيقان المتفرقة ، لم يجد أثراً فى غبشة الأرض للكلب ، وقف محتاراً ، ثم إعتراه غضب خفيف ، وشهد العيون الصفراء تلمع فى باله فدار حول نفسه وعاد سائراً فى هدوء متناسياً النباح غير المتغير وتداخل التأوهات الطويلة وراءه فى الخلاء . سار حتى دخل إلى زوجته . مكث بالداخل مدة غير يسيره ، يكاد النباح البعيد يشغل عقله ، فلما خرج وقف ثابتاً عند الفضاء وداوم النظر فى الإتجاه يتابع رتابة الصدى فى الأشجار بنفس قوته الأولى . ثانية إمتلأ فكره بالآذان والعيون الصفراء والأشواك فلف الركن وذهب متدلياً على الطريق العام عكس آثار الماشية . وصل رأس العالى فجلس على الرمل هادئاً يراقب الماضين والقادمين . أشعة الصباح تجمعت على ظهره وبدأ يدارى الحرارة بكفيه قبل أن يسمع الطنين القصى من جهة المدينة. علا شريط الغبار وراء التلة البعيدة وزاد الصوت ثم خرجت العربة فانزلقت عبر الطينة وإندفعت عليه فى رأس العالى . قفز واقفاً وصعدت خلفه فقبع إلى اليسار ملتصقاً بسور الطاحونة حين مرت على آثار جلوسه ولفت على الطريق الجانبى واستمع إلى صوتها حتى بردت فى مكان ما عند فسحة المحكمة. وافاه فى مكانه أثنان لم يتفقا معه وحاز على الثالث فتقدم للحمار وساروا تقطر حبات الماء وراءه على الرمل ، ويئن الخرج فى أذنيه بنظام متغاير مع وقع حوافر الحيوان الثقيلة على مواطئ قدميه ، يحس ملولاً بتضارب الأذنين عند ظهره ، بإختراق التنفس الحار من حنايا ثوبه ، تستيقظ فيه تخوفات غريبه عند كل لفة على الطريق . ثم سمع النباح ثانية .

شرد عقله طول المسافة التالية ولم ينبهه عند وصولهم الباب إلا صوت توقيف الرجل لحماره . أسرع إلى الداخل وخرج بطشت واسع رماه فى منتصف المسافة بين الخرج والزريبة ، وعاود إنتصابه محدقاً بين الأشجار البعيدة

والنباحان يتناوبان ويترادفان في سرعة مقلقة . ركز سمعه في النباح الخافت الأقصر مدداً متعرفاً على لحن الإرهاق في طول النداء والتأوه ، يتوالى النباح الآخر متداخلاً على القديم مشحوناً بالنشاط والإلحاح . إمتلأ الطشت ونظر إليه الرجل في وجهه فانتبه وارتبك وسار ففتح مدخل الزريبة وأطلق على الماء أربع من المعزات، وعاد فسد المدخل ووقف هنالك رافعاً رأسه إلى الأشجار القصية . ركز سمعه في النباح الجديد أيضاً ، كلب أولاد منصور. لايجد في صوته بين النداء النابح وما يتلوه فاصل أو تمهل يلحظ ، لاتتغير نداءاته درجة واحدة لتمتط مسايرة للتأوهات المنهكة التي يطلقها عارد . ألقى نظرة أخرى على تدفق الماء يقترب الطشت يمتلئ ، تفرقت المعزات الأربع حول المنزل ودخلت إحداهن حول البيوت . سار إلى الزريبة فأطلق أربع معزات وسد الباقيات، ثم إتجه إلى ظهر بيت أولاد منصور وراء المعزة التي توغلت بين ظلال الحيشان . في مروره أمام الباب توقف ونادى عليهم :

— ياعيال ؟ هاي ؟ إنت الكلاب ديل مالهم ؟

أجابه صوت إمرأة رقيق فاجأها السؤال :

— مانعرفني والله يا أب الدومه . .

ساق المعزة منشغلاً عما يفعل وعاد ، متفكراً فيما يمكن أن يكون السبب في أن ينبح الكلبان الخلاء العاري وراء الأشجار في حر الضحى . وجمدت في أطرافه المفاجأة فألقى برأسه على إنحناء رقبته وحامت عيناه في العلا . لم يعد يصدق بالمعقول ، بالثابت وبالزائد ، في جموح تختلط له الصيحات النابحه حادة متكاثرة مثل شريط مهلهل قارص يمر فوق قمة دماغه ويتحرك لسانه المضغوط على حنكه يردد في يأس محبوس لاحول لاحول لاقوة إلا بالله لاحول إلابالله حتى سيطر عقله على إنذهاله تدريجياً وبقى العجب بارداً لزجاً على إحساسه ، يقول في فكره ثلاثة ، يتسمع وسط الجموح ويضغط لسانه عند حنكه ، أربعة ، خمسة ، ويبرد إحساسه بعجب

بارد فيتنفس بعمق . الصوت المبحوح المديد إلى مالانهايه هو كلب حماد العجوز ، والإنشراخات القصيرة هي نبحات كلبة مستوره ، والآخرون جاءوا ، جاءوا من الحلة كلها فإجتمعوا في خلاء هذه الناحية ، ليقيموه هو على مسقط الحافة ، ليعلقوه دون أهل البلدة بحبل الشك المقيت من قدميه ، يتأرجح منذ الصباح بمصاب الناس كالملعون .

المعزات الأربع يداومن الشرب ، يقف صاحب الخرج على رؤوسهن صامتاً ، ويعم المنزل قربه الهدوء ، ثم شعر بإبتعاد المعزات الثلاث الأخريات فترك الواحدة وأسرع خلفهن . ملأ الرجل الطشت وطوى خرجه فوق السرج وإنتظره ، مرهفاً أذنيه إلى النباح المهووس عند الأشجار . أطلق الدومه بقية المعيز على الماء وجر كتلة الشوك على ناحية ، غائب البال ، قبل أن يدخل إلى المنزل ويعود .

إستمر الرجل واقفاً مستنداً على السرج ناظراً مشغولاً تحت السيقان السوداء ، يميل برأسه وجانبه في توال منتظم حتى مد الدومه يده بالنقود أمامه فإنتفض وأمسكها فأودعها جيبه . سأله الرجل منزعجاً .

— الكلاب بنبحو ماالهم ؟

— ماعارفين ياخوى . . والله العظيم ماعارفين . . !

وذهب الرجل فتركه ثابتاً عند موقع الطشت ، ثم لم يجدهن إذ تفرقن جميعاً داخل الحي أيضاً ، فدخل وراءهن بين البيوت . لفهن بعد مدة من بين المنازل وحاشهن على ظهر الزريبة حيث تركهن وذهب بالطشت إلى الداخل . جلبة النباح المتزايد ظل يتراقص في أعقاب عقله فلم يفكر في أن يقول شيئاً لزوجته وخرج مسرعاً . إلتقط غصناً رقيقاً طويلاً من مرقد العيدان وانتهر المعيز ثم صفر فوقهن تصفيراً حاداً فانكمشن متداخلات وجرين على الخلاء متقاربات ، يندفع به عليهن الإهتمام المقلق يسابقه جهة الأشجار . وزاد تسرعه فتصادمت ساقاه واحتفظ باستقامته مداوماً على أذناب الماعز يكاد

يطأ السخلات تحته . تتساقط على وعيه من الأمام مثل إرتجاجات عنيفه قطع الصياح ، ولم يعد يشعر بتناقله الجارى من طرف مجموعة المعيز إلى الطرف الآخر أو بالأزيز الخافت للغصن الراقص فى يده وهو يضرب الهواء على آثارهن ، تنطلق تصفيراته الحادة المتقطعة منفجرة بإنطباق شدقيه مهتاجة لايحتويها حيز وسط رائحة التراب الذى يثيرونه . لم يسمع شيئاً من خشخشة النبات عندما قطعوا الإمتداد الطويل العارى ، وشعر بالأشجار تتباعد حواليه ، والفضاء بينها يمتلئ فوقه والمعزات بإنغلاق السماء المضيئة عليهم . أمال رأسه بين السيقان ونهر المعيز أيضاً فإبتعدت وراءه الشجرات الأوائل وفى وسط الفضاء خلف الحاجز الكثيف من السيقان لمح فى خطفة سريعة أشباح الكلاب عند إنحدار المرتفع . علا الصوت فى سمعه حتى أعماه عن توجيههن وغيرن وجهتهن من ضغطه على طرف واحد منهن حتى أصبحت أمهاتهن فى الغرب تماماً ، فى إتباعه الأعمى على مواطئهن يشعر بنفسه يبتعد فى زاوية نامية عن موقع المرتفع ورقبته تلتف على كتفه حيث ينظر ، ثم إنهمز وعيه فانهال على المعزات فى غضب وعادوا فى إتجاه عكسى ينطلقون فى زاوية متسعة شرقية من المرتفع . مرة ثانية أوجعته رقبته فأعادهن إلى الزاوية المعاكسة ، وظل يرمى بنظراته بين الفجوات المتتابعة متحرق القلب على البعد الذى لايزال يفصله عن الأنحدار والصياح . وبقيت وراءه الأشجار فلما لفهن ثالث مرة فى زاوية شرقية طلع الإنحدار أمامه على بعد خمسين ياردة . جموح النباح توالى مطرشاً للآذان فحبس المناداة التى صعدت على لسانه ووقف المدة التالية ثابتاً هناك يستجمع مما يراه فى وعيه صورة متشكلة فى تناسق مزعج مع الضجيج . الإنذهال المتخوف أصاب جسده كله بالتردد ، يتراخى فيه إلى العجب البارد ، ثم يبدأ وعيه بالمكان والفعل يتداخل وسط تتابع الغريب عليه فيرى آذان الماعز مفرودة خلف أعينهن ، رافعات رقابهن الطويله إلى المنحدر تراجفن بتلك الحيطة الغريزية المستضعفة . تحفز وركيه فى عين الحال تعجلاً وحرقة لما يذهل عقله هنالك فهز الغصن وصفر وأوقع

قدميه على مواطئ أظلافهن وانحسرت القطعة من المسافة بينهم والمنحدر ، يجولون يمنة ويسرى بالحيطة والتعجال . من على المرتفع الصغير أطلوا على الكلاب وتدافع عليهم النباح ورجع النباح واهتز بهم الموقع كله فلم يقع بصره على قطعتى البياض وسط دائرة الكلاب الستة حتى سمع مباغتة إنطلاقهن على آثار قدومهم يرزمن الأرض تجاه حاجز الأشجار . ووجد نفسه يسابقهن عائدين ، متخذاً مجرى مقوساً حول إندفاعهن .

أحاطهن بعيداً من الشرق وانحنى نحوهن فى منتصف الأشجار وحاشهن وسط الأرض العارية ، مرفوع الساعدين يتقافز حول أطرافهن كالمخبول يملأه الإنزعاج . توقف فتنفس بعمق وصرخ فيهن ثانية فأعادهن إلى الخلاء فى إنحناء إلى الغرب يبتعدون كل مرة بقدر متساوى عن البيوت والنباح . إسترجع إنتظام تنفسه عند كثافة الشجيرات فتركهن يتفرقن نهمات إلى النبات تحتهن ، تصفق آذانهن على أصداغهن ويتجولن بهدوء رغبة جائعة . ثم كر آيبا فى منحى شرقى مهتدياً بالصدى القصى يعلو فى سمعه إلى ضجة كلما رقى مرتفعاً بسيطاً وأسرعت خطاه على منخفض طويل ، يشعر بقلبه يزداد نشاطاً وتوقعه كله يحتار فى قطعتى البياض وسط دائرة الكلاب . الضحى أوقع الشمس على جبهته وإنحنى فى سيره يغلب فى وعيه تواثب النباح حتى خرج على دائرتهم واستقر نظره أول ما استقر فى الوسط وبعدها تمدد إحساسه يكتسح وقفات الكلاب . عارد وكلب حماد وكلبة مستوره فى ناحية وكلب أولاد منصور وجرو وكلب آخر تتقاسم الجوانب الباقية ، رافعة رؤوسها فوق هواء الوسط المبيض تتزاحم النباح بعداء متشكك إلى القطع الثابتة تحتهم ، يبعدون عنها ثلاثين ياردة من كل موقف .

وسط نبات السنسنى لم ير سوى البياض الجامد ، ثم شملته أضطرابات مقلقة فلم ينتظم تقدمه ، يدفن أعقاب قدميه فى التراب كالمتراجع . أصلاب الكلاب متدلية على أغصان النبات ، مباعدين أقدامهم الخلفية المنغرزة فى الأرض ، ضامين أيديهم ملتحمة إلى صدورهم ، متيقظين بالإصرار

والإستعداد ، يخرج النباح من بين أسنانهم حاداً متوحشاً مرعباً مثل فحيح راعد . تعلق التنادى على الكلب بطرف لسانه ولم يقفل فمه حتى وقف معهم جنباً إلى جنب وابتلع ريقه ، يحدق فى الحمرة الداكنة تلطخ فى تساقط متغاير الجانب الأسفل من البياضين الطويلين ، مستقرين فى ثبات مخيف تتلاعب عليهما أغصان السنسنى . قدم جسمه خطوة ومط رقبته وبقى صراخ الكلب خلف سمعه وتزايد التلطيخ الأحمر فى عينيه ، لم يحرك الهواء قطعة فى البياض ، ثم هزه الإضطراب فأعاد جسمه إلى الوراء وذابت الحيرة وتشوق الإستطلاع من فكره وحل فى وعيه كقطعة من حجر صلد الحيطة والريبة فتراجع ثانية ثم إستدار ، يشعر بتزاحم الكلاب إلى الوسط متزايدى التحرش بوجوده ، يكادون يندفعون على رائحـة الجسد البشرى المتخثل عليهم منذ الصباح . تحول فيهم غاضباً .

— جر . . جر . . جر . . !

برك على بقايا شجيرة قديمة فكسر منها ملئ حفنة من الأعواد وقفز جارياً عليها يجدع يميناً ويساراً بكل قواه . تأوهت الكلبة المضروبة وفرت وتبعها الجرو وتراجعت الكلاب ، لاتزال تنبح متلفتة متحاشية العيدان ، وطاردها أسفل المنحدر يلتقط الأعواد والأعشاب ويجدع وراء جريها المتشتت صائحاً فيها بغضب عارم .

— جر . ! جر . ! غضب الله عليكم . !

عبروا حاجز الأشجار وإعتدل إتجاه كل منهم نحو منزلهم مخلص العودة وظل يطاردهم مائلاً إلى منزله يشعر بعارد يتأخر له متودداً فيعيد عليه اللعنة ويحدث نفسه بالغ الإرتباك . الخلاء صمت مريب والبيوت قدامه تدمدم بخفوت شرير كأن عيونها تنظر إليه من بين قصب الحيشان و تضحك. لم يعد ير الزريبة تقترب منه ، ومر على الكلب منبطحاً متجهاً إليه ودخل الحوش فظل الكلب يدور بالخارج من الركن إلى الركن فى غير إستقرار

حتى خرج فوقف لحظة ثم سار بين بيت أولاد منصور وبيت مستوره يتبعه الكلب عند كعبيه متوغلين في الحي .

ـ شفت ياعثمان زى دا طوالى . .

تصل أخبار حامد إلى أذني الآن باردة أكاد أعرف مسبقاً ماسيذكره في الكلمات التاليات ، لايزال خطونا واسعاً نلف بين الأشواك ومنزلنا يزداد بعداً وحافة المنازل الشمالية تزداد إقتراباً ، يستند أولاد صغار إلى أعواد أبوابهم ينظرون إلينا بعيون صغيرة يملأها الغباء .

ـ شفت أنا قاعد لما عاطت بفوق الحوش وأنا سامع لما قالت ليها الناسين هناك في الخلا لقاهم الدومه . . بعدين سامع تقول الدومه مشى يورى العمده . . لما مرقت للباب شفت مستوره تعيط في سليمان . . « المطموس البليد ماشي هناك هناك أبوك ؟ الناس مامشوا إنت سابقهم تعمل شنو ؟ » . . واقف جنبها ضربتو كف وقع وقام وأنا دخلت البيت . . قاعد سامع بكلموها قالو العمده وناسو بجو بعد شويه ماشين لهناك يشوفوهم . . بعدين شالت توبها ومرقت عجلانه . . وقفت أنا في الباب شفتها دخلت في بيت مستوره . . بس قلت أجيب عثمان قبال دا يشيف . . . سديت الباب وجريت ليك .

لم نذهب بطريق بيتهم ومرقنا من بين البيوت إلى الشرق وتوقفنا تحت ظل شجرة تتمدد من داخل حوش شيخ النور . الخلاء باق على الثبات وحر الضحى لايتحرك فيه شيىء ، والحيشان صامتة ثم تبدأ حكاية حامد تتلاشى في بالى ، وأنظر إليه وينظر إلىّ ، ويمط يده بزعل على الفجوات البعيدة بين اللالوب إلتفتنا سوياً حين خرجوا من وراء بيت مستوره ، وسمعنا همس سيرهم حتى تركوا زريبة الدومه على ظهورهم ودخلوا الأرض العارية ، ثم غطى النبات

الأخضر تبادل أقدامهم على الأرض وبقي جسدهم المبتعد يقترب من الأشجار ، شعرت عندها بأن حامد يمسك بيدى يشدني فى وقفتى أكاد أندفع واقعاً فى إتجاههم ، وإعتدلت فلما نظرت إليه أطلق يدى .

— قالو يخلو الناس الكبار يمشو بعدين . .

كان سيرهم حثيثاً فأظلهم الحاجز المخضر وبقيت أشكالهم البيضاء تلمع من بين السيقان الزرقاء متلاشية ، ويتحرق ما بداخلى للمسير . مباغتة جاء من خلفنا مهرولين عبد الرحيم بسوس وأحمد عديل ، زاد إسراعهم حين لمعت أعينهم بشكل الناس المبتعدين وألقوا علينا نظرة سريعة أعقبها كلام بسوس الحاد الرقيق .

— مالكم واقفين هنى ؟ يلاكم كن ماشين . .

لازمنا الرجلين ساكتين ، يتبادلان أحاديث المقهى ، نقفز فوق الأعواد باذلين أبلغ الجهد فى مسايرتهما فلما تخطينا الأشجار كانوا لم يصلوا بعد ، ينحدرون من المرتفع متداخلين فى بعضهم ، وسطهم رجلا البوليس متقدمين يقودهم بجانبهما الدومه . وتوقفوا فى قلب المنحدر فانتبه وعيى كله إليهم ، أشعر بهم حتى وصلنا وحشرت نفسى بين أول الواقفين ، فرأيت من بين يدى وكيل الأمباشى خطوط الجسدين المندفنين تحت النبات والأعشاب الجافة . من الجهة المقابلة أفرد رجل البوليس ساعديه على تقدم الناس ، فثبتوا فى أماكنهم ، ومشى وكيل الأمباشى وحده بتأن متلفتاً أسفل قدميه ولف حولهما قبل أن يدخل فى الفراغ بين إمتداد رقادهما . تركزت النظرات جميعها فى هيئة رقدتهما ، ترتجف جبهة الرجل المقابل لى وتهزني القشعريرة ، لم أكرر النظرة الأولى إلى الحمرة الداكنه تلطخ صدر فلقه وجانبى بدنه حتى عنقه وتنزل من تحت شدق حاجى فتسيل على الأرض وفى الأعشاب بالجوار كله. أشعر بيد حامد تمسك جبتى عند الرقبة مرتجفة ، وأتابع مع الرجل قبالتى ، تحرك وكيل الأمباشى إلى جهته حتى غطاه عنى . نظرت فى وجه بسوس

تحدق إليهما ، وتتسرق نظراتي على قدمي فلقه المتباعدتين ، يتجدع على ظهره مربعاً ساعديه مفرودين طويلاً نحيلاً كأنه قطعة من قماش ملفوفة على عصا. عيناه الناعستان منفتحتان إلى منتصفهما ترتكزان بقطع من سوادهما البنى من تحت الرموش فى ضياء الفضاء ، على قدود منخريه دماء سوداء متيبسة ، ووجهه المعظم جامد على ذات النظرة الفارغة التى عاش معروفة عنه .

يمتد ساعد حاجى الأيسر عبر بطن فلقه الهابط ويقع على الأرض قرب أبطه العارى واليد اليمنى قابعة فى حضن صاحبها المتكرفس فى التراب ، يستند رأسه إلى وسط شبكة العظام القائمة من تحت أثواب فلقه ، وتبحلق عيناه مفتوحتين عن آخرهما مع صدغه المكشوف فى وجوه الواقفين جهة الحى . الأرض تحتهما فى كل ناحية تمتلئ بحفر وآثار جسديهما ونعليهما ، يلونهما تراب أحمر تملأ بقع منه جسميهما .

ثم إلتقط وكيل الامباشى الخنجر من قعر السنسنى إلى اليمين ورفعه أمام وجهه ، يديره فى يده وكلنا نتابع معه تقلب النصل القانى ولمعانه فى صمت تام ، أشعر بالضغط يزيد على الجبة عند رقبتى دون إنتباه . مشى حولهما فمر من الجنوب وغطاني لحظة وذهب من الشمال إلى أن وقف قبالة الفجوة بين رقادهما ، ولمدة غير قليلة ظلت تعبيرات وجهه ميتة مكشراً من أعلا جبهته ، متصلب الإستقامة ، ثم مط يده بالخنجر فى قلب الصمت إلى رجل البوليس . دلى يديه فأدخل إحداهما فى جيبه وأخرج ورقة وسل قلمه وكتب ، تتحول عيناه حول الجسدين إلى النقر أسفل النبات وعلى الرقدتين ومرة ثانية على الحفر ، بين حين وآخر يرفع رأسه عن الورقة وينظر من فوق أكتاف الناس المنحنين جهة الحى إلى ماتحت خضرة الأشجار. وطوى الورقة فى يده وإنتظر متحاشياً نظرات المترقبين ، مقيماً آونة إثر آونة رأسه جهة الحاجز ، وقال بعد إحداها :

— إتوسعو للحكيم .

إلتفتنا ومال الواقفون حواليهم فإنفتح تدريجياً مجال قسم الوقوف إلى

شطرين، وتبينا وراء قمة المرتفع الطبيب ورجل البوليس يرتقيان إلينا. قطعا المنحدر في غير عجلة ووصلها، يحمل الطبيب شيئاً صغيراً يضمه إلى صدره. كان رجل البوليس سلامه بنفسه. إعتدل كل من وكيلّ الأمباشى والآخر فى وقفته وإنتظرا وقت إنهماك الأثنين فى إستيعاب ما فوجئنا به تحت أقدامهما غائبين عنا فيهما. ورمى الطبيب الكيس الأسود على النبات وحام حولهما متفحصاً رابطاً وجهه بتلك القساوة الجادة. وصل إلى سلامه ووقف ساكناً ثم هز رأسه ممتعضاً. مد وكيل الأمباشى يديه بالأوراق والخنجر إلى سلامه ومن بين الواقفين قال صوت كبير.

— يا أمباشى الحر بعفنهم فى الخلا دا..

لم يتحرك من سلامه شيء، وظل ينظر فى الأوراق والخنجر يقلبهما فى هدوء بين يديه وينظر إلى الوضع عند الراقدين وبعدها إلتفت إلى الطبيب.

— أعمل كشفك تمو..

أمسك بيد وكيل الأمباشى، وأشار بيده الطليقة وفيها الأوراق والخنجر فى وجهة الأقدام الراقدة، ثم لف به على الآثار الجلية للمركوبين القادمين من الشمال. جلس الطبيب على الأرض وفتح الكيس الأسود فأخرج منه ملقطين، أمسك بأحدهما القميص حول رقبة حاجى ومزقه فإنفتح قانياً القطع واللحم المنقلب فى النحر وإنقذف وجهى بعيداً. إتجه من الموقف عدد من الرجال على أثر سلامه ووكيله وإتبعنا آثار رجلى البوليس على خطوات المركوبين القادمين، ألازم أحمد عديل قابضاً على يد ويتعلق حامد بيده الأخرى. يشير عديل على أحد المركوبين متأرجح الخطى يندفن على طرفه فى الرمل ويحوم بين الحين والآخر فى دائرة كاملة على مواقع المركوب الثاني.

— فلقه سكران.. حاجى بس الماسكو على كرعينو.. لو طلقو إلا يقع..

ظل سلامه وو كيله متقدمين ونحن على أعقابهما، ثم توقفا فى إنتظارنا. إبتعدنا عن مجموع المشاهدين والطبيب وانحرف الطريق القادم فى دائرة متأرجحة قليلاً إلى الغرب فى إتجاه الشجيرات القصية. بين النبات والأعشاب الجافة تكتسى الأرض بدروب الحشرات والفئران وعدد غير قليل من الزواحف، تنتقل من جحر إلى جحر تحت أغصان النبات والأعواد المندفنة بالرمال الزاحف. من مكان سلامه قل دوران الخطو غير المتوازن حول الآخر واستمر مستنداً من شكل المركوب على الخطوات المستقيمة. أشار سلامه أمام عينيى عديل.

— الناس ماهم متعبننا كدا بس ياشيخ عديل.. واحدين سكرانين..

واحدين حراميه.. وواحدين رباطين.. فى زول فى الدنيا دى شايل هم زى همنا أنحنا ديل فى شئون نظام البلد دى؟ حس لو سألوهم لافين بينا الخلا ماهم يقولو شنو؟ وبعدين يكتلو نفسهم وأنا يجرو لى قال فى الخلا كمان آخرين.. وآهو دا الوكيل يادوب جاي من درب جواد حاج أحمد..

سرنا حتى دخلت الخطى أولى الشجيرات المخضرة وإتجهت غرباً فأشار سلامه على وكيله وتوقفنا. نظر إلى البقع الملساء الجلية القادمة فى تتابع مستديم حتى غطتها شجيرة مقطعة يابسة وتنفس طويلا.

— لو تبعت مراكيبهم دى تلف بيك فى العالى ويرجعوك للسوق لما مرقو بالليل.. كفاني أعمل حاجه للبسووهو لى فى الحله دى.. أرجع بينا على الناس..

كررنا عائدين فى خط مستقيم وترى وطلعنا على المتجمعين مفاجأة غير دارين، كما تركناهم فى وقوفهم المشطور ورأس الطبيب بسوداه الحالك بارز أعلاهم يتمشى وسطهم مقبلاً ومدبراً فى إتئاد. تكلموا فيما بينهم كلاماً بارداً مدمدماً وهم ينظرون تحتهم فى أسى، وقدمنا من حيث

خرجنا فرأينا الوضع الجديد للجثتين . أعيدت السواعد المتجادعه فألصقت على جنوب الشابين وأرقدت عينا حاجى كما تمطت ركبتاه قليلاً وربط شريط أبيض ناصع جديد من تحت أبطه فغطى القطع عند نحره ، يرقد على جنبه حزيناً مهزباً خجلاً ، وإستمر فلقه على نعسته الجامدة يحدق من تحت رموشه المرتخية إلى ضياء السماء متحفزاً على ساقيه المضمومتين كأنه سيقفز بطوله واقفاً فى خطفة وينفجر يعوى عليهم .

ضم الطبيب كيسه الأسود إلى صدره وإقترب فى وقت واحد مع رجل البوليس من سلامه الذى إنشغل عنه بما يمده إليه الرجل فتوقف قربه متصبراً. أمسك أولاً بالمنديل الحريرى الطويل ذى البقع البنية، فأفرده وطواه فدسه فى جيبه وقدم له الرجل كفيه معاً ، فى الأول أربعة عشر قرشاً وجدت فى جيب فلقه وفى الثاني جملة من العملة الحمراء والبيضاء قال إنها كانت فى جيوب حاجى . ثم إنحنى على الجسد الطويل، فأدخل يده من فتحة فى الجبة كالجيب ، وأمسك على الصلب والسروال المسود حزاماً جلدياً مستديراً حول نحالة الجسم المبرقع ، من طرفه يتعلق بيت خنجر جلدى أحمر تزخرفه حلقات لامعة . همهم الناس بخفوت وأعاد الرجل لف الجبة حول الجسد ووقف معتدلاً . دمدم سلامه .

— ما أصلاً بتاعو . . معقول كان يبقى بتاع التعبان دا بس؟

مال عليه الطبيب فى نبراته القاسية الخشنة .

— يوصلوهم لى الشفخانه عشان آخد منهم عينات . .

تلفت الأمباشى حواليه ورفع رأسه ونظر إلى الناس ملياً ثم أحنى هامته لبرهة وإستدار بسرعة إلى الوكيل .

— أسمع أجرى ياخى للفاتح . . قول ليهو . . سلامه بقول ليك تجى ..عشانو .. وحياتك تأخد ليهو إتنين ميتين من الخلا للشفخانه .. أجرى . . قول ليهو كلامى دا بالحرف . .

أسرع وكيل الأمباشى من خلفنا وإبتعد فى سواده المنفرد ، كلما تلفتنا رأيناه يزداد ضآلة وبعداً ثم لم يبن فى الفضاء هنالك . فى إنتظارنا خلع هارون ملفحته ونفضها فغطى بها الوجهين من ضغط الشمس ، وغادر المكان ثلاثة رجال . عندما غطاهم المرتفع همس سلامه لعديل .

– مافى دقيقه بس من وصولهم الحله كلها تعلم . . إنشالله العربيه تجينى بسرعه أدخلهم الشفخانه قبال مايوصلو الناس . .

وانتظرنا ، حرارة الشمس ثقلت علينا ، وإنفردنا أنا وحامد لم نتبادل كلمة واحدة ، ننظر فى وجهينا حتى سمعنا أزيزها ،ونظر كل الجمع فى الإتجاه عندما ظهرت على شارع المواشى وأسرعت فزاد صوتها فى أسماعنا . أشار سلامه موضحاً لسائقها الشاب فدار بها شرقاً ووقف بها من الشمال ونزل . إجتمع أربعة رجال على كل جثة فرفعوها وتلقاهما فوق ظهر العربة رجل البوليس والوكيل وأرقداهما جالسين بقربهما . تسلق سلامه فدخل مع الشاب المنحنى على المقود رابطاً وجهه خلف الزجاج الأمامى وتحركوا ثم إنطلقوا فعبروا الحاجز الأخضر ودخلوا بشارع المواشى وغابوا عنا . وتفرق الجمع بعدها إلى شلل صغيرة متباعدة ولازمنا أنا وحامد بسوس وأحمد عديل وسرنا . إثر تعدينا الحاجز المخضر بقليل أدار الرجل الكهل أذنيه فجأة فى إتجاه معاكس للريح فتسنط وقتاً وإعتدل هامساً لبسوس :

– زى مابقول سلامه تمام . . بكوركو فى بيت ناس مختار . .

البلدة

ثم قال أحمد عـديل :

— حاجي وفلقه الإتنين ؟ !

حاجي ودحوه بت مختار ، وفلقه لم يعرف له أحد أماً أو جداً . جاءت العربة في مكان ما وسط البيوت وصرخت المرأة التي كانت تندب بصوت مديد على رؤوس النساء . إنخلعت أنا كما إنخلع حامد وقام زين الدين على أمشاطه يضغط بين القصب وجهه الرقيق ، متعجلاً . وصرخت النساء كلهن وعندئذ جرى زين الدين خارجاً فإنطلقنا كذلك وراءه . توافد الرجال من بيت مختار إلى الفضاء وتراجعت نحوهم العربة حتى رمى صبيها بجلجلة مؤخرة صندوقها فظهر هنالك على أرضية الصندوق محفتين . رفع أحمد مختار والمساعد أحد المحفتين إلى التجمع وصرخت النساء من الداخل في ترديد طويل ، بعدها رفع الشابان المحفة الثانية عالية وتناولها الجمع ، وإختفى الصراخ بغتة فتمايل الرجال بالمحفة في فراغ شامل من أي صوت . إرتبكت لوهلة خطوات المحفة الثانية عند الباب ومالت متقذفة على جانبها إلى الشوك لولا ثلاثة رجال تلقوها بأيديهم وصبروا متنكسين بثقلها ثم رأينا الرأس النسائي الحاسر واليدين الرقيقتين تتخبطان الهواء حول الرؤوس ، تتعقبان المحفة في توال مربك . تقابضت السواعد للحظات ثم إنفجر بكاء أنثوي حاد تتقطعه نهرات رقيقة ثائرة .

— ماتدخلو في بيتي . ! والله العظيم مايدخل معاهو . ! يا أكال كبدي ياشراب دمي ياود الشيطان . ! عليكم الله أرحموني ياناس . . ماتحرقو لي قلبي يا أهلي .

الفراغ الشامل من أي صوت شغل الحيز بين البيتين ثانية ، واختفى

الرأس النسائي وراء الباب يتدافع فى المجموع ، وتبعتهم المحفة بتؤدة فتوارت وراء عمودى الباب . فى الحوش الداخلى يتمدد بكاء النسوة ويرتقى كما كان صراخات رقيقة فى وقع كئيب .

حاجى ود فلقه ، يسميه أهل السوق . فى الأمسيات يسمعون فقفقة ضحكاته بين الدكاكين ، يحتضن إلى صدره بكلتا يديه ساعد فلقه الطويل ويتمخطران بين الظلال المتواصلة ، لايرفع عينيه عن وجه فلقه الشاحب ولايسكت فمه عن كلام فارغ كثير غير واضح ، ثم يضحك ، ويبتسم وجه فلقه الصامت ، رافعاً بصره عالياً دون أن يلتفت رأسه المستطيل . من بعد دكان مقفول ودكان بعده ينشغل الناس بالأقوال عنهما أو بالإهمال لشأنهما ، يذوبان فى الظلال . على رأس العالى قد تجدهما جالسين مع مغيب الشمس يطلان على بنية الأفق البعيد وحاجى يتكلم له تحت أذنه ويضحك حتى يقع بظهره متجدعاً على علا الرمال المقوس . ينظر إليهم المتسلقون من الآبار ويتحدثون : فلقه صحب حاجى وحاجى صحب فلقه . إذا مامرت معهم حوه بت مختار ألقت نظراتها عند خطوات البهائم وسكتت فلايكلمونها.

يقول لها فلقه حين يلاقيها :

— إزيك ياحوه .

لم يفكر مرة فى أن يقول لها خالتى حوه ، لم يحاول قط أن يقصر خطوته إذا مالاقاها ، فى تناهزه النحيل يرفع ركبه ويرخى ظهره دون أن يتقدم الى أن يختفى من المكان . حوه بت مختار تبحث عن ولدها حاجى ، يقول عنها أهل السوق كلما سارت بين الدكاكين وصرت وجهها .

الضو كان يحدثنا أنا وحامد أمام مخزنه أنها جاءت من الظلام إليهما فسألتهما عنه ، ولم يفداها بشيئ . مصادفة فقفقت ضحكاته فى الظلام ومرق عليهم جارياً ، ثم توقف منتصباً بينهم . أخرج عينيه فى وجهها ولم يقل لها شيئاً ولم يبتسم لأحد وهى تنقل بهدوء نظراتها المتشوقة فوق بنيانه

الراكز أمامها دون أن تطرف عيناها .

— ياوليدى . . جدك بسأل منك . . وخالك بسأل . . وأني أمنسأل
زول طيب كدى يبيت برا والناس ماعارفنو وين لبكره العشا ؟ .
إلا يقومو يكوسو براهو كدى ماعندو حن فى قلبو لأهلو يجى
يشوفيهم . ؟ ياوليدى وراجل تام متيلك دى ؟ .

على حافة الظلام تناهز قلقه لسويعات واختفى وعاد حاجى فالتفت إلى أمه ثانية وأخرج عينيه فى وجهها وزم شفتيه بقوة وظل على حاله ذاك والضو ومحمدين لايحولان عيونهما عنهما ، يتمنيان بحرقة لو يقول لهما شيئاً ، أو يقولان هما لهما شيئاً ، أو تقطع الصمت من نفسها بإضافة شيئ ثان . أن تستمر فيما لايزال يتحول به وجهها من كلام لم يقل .

— ياوليدى . . تدورى قال إلاهو دى براهو بس تقعد معا ؟ . من
الناس ديل كلهم إلاهو بس يبقى ليك ياوليدى أهلكك ؟ ليلك
ونهارك زى الزول الماعندهم بيت ؟ . مايعجبيك ياوليدى فى
الدنيا شيئ إلا الحال التشوفى دى ؟ .

سواد العشاء المبكر وسكون المواجهة أولد من مكامن المعارف المحبوسه مخارج معهودة للوهم الكبير ، الوهم المتلبد فى تفكير أهل البلدة أينما شهدوا حاجى وموقف عصيب آخر يؤرقان عيون أفراد بيت مختار . لم يقاوم الضو ومحمدين تحت تمدد التوهم على غيبتهما وانتفت حقيقة المواجهة أمامهما ، تتجول فيهما الصور المتكاثرة عليهما ويتأكد لهما وهمهما ، والولد وأمه بجانبهما لايقولان شيئاً ولايزولان . برد كلام الضو وسكن وضاع منى ومن حامد ثم كنا نقف هنالك ثلاثتنا ، تزحف التقولات المتدافعة على أفكارنا فى غفلة تامة منا . التساؤلات المحيرة خرجت من دائرة الشك ، ثم طرقت فى رأسى الأقوال القديمة ، وجاءت معها بالمعارف الابتدائية المجبوسة ، فإكتسحت تدريجياً ماتبقى لى من جهل وإستنكار وغباء . .

وإتبعت معرفتي أقوالهم فوعت بتأكيدات البلدة

على ساحة المحكمة كان قد جلد عشرة جلدات ، لم يجلده جده مختار وجلده حسب أمر العمدة جابر . وقفنا أنا وعبد الرازق بعيداً عن بقية الناس أتدارى من صرخاته بفتحات جبة عبد الرازق والناس أمامنا يتكلمون عن سوء فعلته ومستقبل ما يمكن أن يفعله بهذا القدر من الشر . لم يكن جابر قاسياً، وكان سريعاً فلما إنتهى أقامه وإبتعد به عن جده وأعطاه لخاله أحمد. وضع خاله جبته على كتفه وقاده بعيداً فى طريق منزلهم إلى الشمال . إنهمز عبد الرازق كعادته من إلتفات الناس علينا فجرني وذهبنا . وعندما كنت على وشك الخروج عنهما رفع رأسه عما كان يفعل فى عفشه وسألها عنه . . حكت له كل شئ وأنا واقف أستمع إليهما . ثم عرفت فيما بعد ماذا يقصدون بولد نسوان . مؤخراً كنا نتغالط وحدنا أنا وحامد كيف يكون مختار جده ويكون إسمه الذى ذكرته أمه يومذاك للحكيم حاجى مختار (كأن أحمد مختار أخوه وليس خاله) ثم يكون إسمه كما يعرفه كل فرد فى البلدة حاجى ود حوه بت مختار . أخبرها عبد الرازق بأنه جلد أمام العمدة لأنه كما قالوا ربط معزة أم الزين الصفراء فى الوديان حتى ماتت . لعنته أم الفضل بأعلى صوتها ولم تستمع إليه يحدثها عن بقية ماقالوه . طوال الأيام الثلاثة ظل يتلصص إلى مربطها فى قلب الوديان ، يقضى النهار يجمع لها الأعشاب المخضرة ويرميها أمامها ، ثم يحلب ضرعيها فى فمه حتى يرتوى . أم الزين نادت كل أشجار الخلاء عليها ، ونبهت بشأنها أهل الحى كل صباح ومساء ، وبكتها حتى تورمت عيناها . فى الأمس وجدها منصور منخنقة بحبلها إلى شجرة الكتر حيث ربطت . ووجد آثار الاقدام ، ثم لم يلبث أن إلتقيا لمفاجأة على طريق البلدة ، منهمك الجرى فى حر الضحى على دروب آجام الوديان الوسطى .

ظلت تحدث عبد الرازق بأمور أولاد النسوان وأنا أستمع إليها ، لم

يفقد أحد منهم نفسه أو أهله أو غير أهله قط ، هكذا إستمرت تقول له . لم تبد عليه الدهشة وأنا فى صمتى يدوخ عقلى الإستغراب ، ثم بدأت مؤخراً أفهم شيئاً مما كانت تقوله . وتجمعت لدىّ مع الزمن ثم لدىّ وحامد والآخرين حقائق كافية عما ظل يقوله أهل البلدة لأمد طويل .

بعد ذلك أخبرني جليل كيف طردوه من المدرسة القديمة . لايستطيع جليل أن يجزم بشأنه يوم أحضره مختار أكان سكراناً أم خائفاً . فى الشهر الثاني هرب بعد شجار له مع أحدهم ، جلدوه فى اليوم التالى وهرب بعد مشاجرة مع الأمين فى نفس اليوم . عندما عاد الأمين بالشارع الوسيط فى النهار أصابه حاجى بحجر فى رأسه ، جلدوه اليوم التالى أمام جده . سماه فتى من القيزان ولد نسوان فذهب إلى بيتهم ولم يعد فى اليومين القادمين . إستغرب جده عندما حدثوه وساقه من يده إلى المدرسة فى أول الصباح فجلدوه فى حضوره . عاد من الفطور ناعس العينين ذلك اليوم ونام فى الحصة وجلدوه أمام ناس جليل . اليوم الآخر فاحت منه رائحة الشراب حتى ملأت الفصل وأخرجوه ثم أرسلوا ورقة مع ناس جليل إلى جده بأنهم رفتوه .

بقى قريباً حول حوه ليزداد سكراً ، وجده يزداد ضحكاً من أفعاله ، وخاله يزداد سخطاً على إفسادهما له ، والناس ينون من المعرفات المحبوسة عنهم صنوف الوهم . فى البداية كان لايزيد على تخديش أولاد الحى ، وتحتضنه حوه تتوله بعناده وحماقته حتى تملأ أم الولد المضروب الحى كله بتلك الشتيمة ، كأنما الناس قد نسبوا أنه ولد نسوان ، وكأن المولى يكلفها أن تحفظ أهل البلدة على الذكرى . والحى كله يعرف أن مختار موجود هنالك يمضغ غضبه فى أوداجه ويتناقص إحتماله مع تزايد عياط النساء فوق داره ، ثم يخطف شيئاً أياً كان من أمامه ويدخل فينتزعه منها ويضربه به حتى يحتاج تخليصه منه إلى كل رجال الحى مجتمعين . أنذر الرجال نساءهم رحمة به ألايشتمن بتاتاً إذا مافعل أى شيىء مهما كبر . وعندما شتمت زوجة

زكريا لضربه ولدها وأبت أن تسكت حتى خطفه مختار فوطأه ليذبحه وصرخت حوه وجرى عبد الله إليه وتصارعا فجرحا أيديهما طلق زكريا زوجته . تجمع الناس فأرجعوها له ذلك المساء وازداد حجم الشكوى عند نساء الحى .

ثم كان يوم معزة أم الزين . وجد أحمد مختار أخته قد شدت جمله وقبضت رسنه منتظرة به أمام الباب ، وقد أدخلت حاجيات حاجى فى عفش خاله فأركب الصبى خلفه وطلعا شرقاً إلى القيزان . كاد أحمد مختار أن يجعل منه تلك الأيام رجلاً حياً مثله لولا تلهفهما وتكالبهما عليه أمه وجده . يستطيع أى شخص فى البلدة أن يحكى عنها كيف كانت تحتضنه وتبكى كلما رأته جاء القرية وارداً ليحمل الماء إلى خاله وأهله هناك . يخبرون عنها كيف كانت تقع على ركبها فوق الطين والرمل والأحجار ، أينما لاقته ، تحتويه بين يديها متسابقتين ملتفتين على رأسه وأكتافه وظهره وساقيه وتسيل دموعها على أثوابه . وتقف النساء تستغربن منها ، والولد يتململ بين يديها خجلاً ومنزعجاً ، تتمسك به فلايجد غير أن ينظر فى وجهها ويتبدل . يتبدل لأجلها أفضل مانما فى داخله ويذوب ما أقامه عليه خاله تلك الأيام فينساه . يكب عليها فيخنقها ويبكى ويصرخ ، وتسيل أدمع النساء عليهما يتناسين كل ما كان ويلعن من أعماق قلوبهن لما فعله بهما مختار وأحمد مختار .

لم يحتمل أحمد مختار ذلك الحال بعد السنة الثالثة . جاءا البلدة سوياً فى أول الصيف ثم بقى حاجى ولم يغادرها بعد ذلك أبداً . قالوا أن مختار أراده لنفسه الآن ، وقالوا أن حوه هى التى أصبحت لاتكره شيئاً فى هذا البلد مثل كراهيتها لأخيها . وتحدث العارفون بما زعموا أنه أخبرهم بنفسه بأنه كلمهم كيف كان يقسو عليه ويرشده ويبنيه لثلاثة أشهر ، يذهب على أثرها إلى البلدة ويراهما فيعود له فى حال أفسد مما كان عليه يوم حمله على جمله إلى القرى . والناس لم يسكتوا أفواههم عنه ، أخلصهم نازعوه

بأنه يعذب والده وأخته ويقتل ولدهما ليمحو عاراً لم تعد له أهمية ، وبقيتهم عاشوا يضحكون فى أركان أشداقهم لمجرد مرآه ، كأنه لهم يزبد ويعرق ينسج فى فراغ دنياه حباله العنكبوتية ليوقف الوعود التى قدرتها إرادة المولى على بيت مختار فى ذلك اليوم الذى وضعت فيه أخته ولدها على حريتها.

كأنما الناس قد إنتبهوا وتحصنوا ضد عودة حاجى إلى البلدة فمسكوا على أغنامهم وأولادهم وتحفزت فيهم أبصارهم ومسامعهم . إجتمع لهم بين اليوم والآخر فى حلوقهم وآذانهم قول كثير يتصبرون به حتى يشهدوا ماكانوا يتوقعونه ، كأنهم لذلك فى حرارة من أمرهم . يوماً تكلم الناس بما رأوا واخبروا أصحاب الأقوال الفائتة أنهم كانوا على صدق . الذين ألفوا مختار يعلو فى البكريات كل يومين مرة حاملاً على ظهيره المعتدل طشته ودلوه لم يشعروا بإفتقاده لعدة أسابيع ، ورأوا البقرات مع القطعان تخرجن فى الضحى على الطريق ذاهبات راويات البطون . أهل الحى يعرفون أن حوه هى صاحبة الأمر على مختار ، كانت كذلك دائماً وستكون على الدوام ، حوه لن تذهب لتسقى بقر مختار . زوجة زكريا سهرت فى أحد البكريات وجاءت فأكدت أن حاجى يسقى بقر جده الآن . زكريا قال عنه أنه ولد متفكر رأى أن يخفف على جده ، وتحفز السقاة على الآبار وصدر العالى يرونه صاعداً بالطشت والدلو مسرعاً على ساقين طويلين يتأرجح على جانبيه ساعدان رقيقان يتدلان حواليه كأنهما يدى دمية تتحركان فى محورية منفلتة . حوه تنتظره بالشراب البارد جنب نيران البيت ، ومختار يضحك بالإرتياح ويحدث العمدة عما قاله حاجى وماقالته حوه حتى يضحك العمدة ويقهقه ، ينتظران الكبار على الساحة منبطحين على الرمل فى خفة هواء الصباح . يراه الناس فى المساء وأول النهار منحنياً على الدلو يسقى جمال أحمد مختار ويتحدثان عن القرى ، ويجيئ عليهما آخرون . يألف أهل الحى أسبوع بعد أسبوع فرجته ، ويبتعد عن تفكيرهم ما إختزن من تصميم قديم ، بتتابع

اليوم على اليوم تزداد قرابته من الفتيان السقاة ويكسب قبولاً فى البلدة ، فى الحى ، عند المشارف وعلى الطريق .

وفى الأمسيات ينزل أيضاً إلى الآبار ، يجدونه يحادث الأجراء الأغراب أمام رواكيبهم وعلى حوافى الهوائر متمدداً معهم عند الأعتاب العالية قرب الأعواد ،جالساً على هتال القش المتناثر بين أشواك الفوهة . يستقى الواردون مع الغروب ويتركونه يتجول يتكلم أفرغ أنواع الكلام ، فى ظلام العشاء النازل يتحاوم مثل شبح هائم من أقصى الرواكيب إلى أقصاها ، ويختارون فيه ألا يملهم ولا يملونه ، ولا يحتاجون إليه فى بيت مختار . بالعصريات يدور فى أركان السوق أو يسير مع جده كتفاً إلى كتف يشتريان ملحاً ، يشتريان سكراً مع أحمد فى أيام الأسواق . يمر كل صباح صاعداً على حافة العنابر المتهدمة فيلتقط قطعاً من الطوب الأحمر يجمعها فى بطن ثوبه ويذهب ، يريد أن يبنى بيتاً لدجاج حوه يسجنها فيه ليلاً ونهاراً . يوم مرض وأحضرته حوه وذكرت للحكيم إسمه تنحينا أنا وحامد جانباً وإستغربنا كثيراً ، وسألنا عند أهلنا فعرفنا ما كان يبدو آنذاك شيئاً ميتاً مدفوناً فى رمال البلدة مخفياً فى بشاشة أهليها . ساءلوها فى الشفخانة عما أصابه ولمسوا جبهته ونحريه وتأسفوا بحيوية لها وله ، أركبته حمارهم فعادت به حاملة معها قلوبهم المتحرقة أن يشفيه المولى ، الفتى الطيب الظريف إبن الرجال .

عندما عاد حاجى إلى الآبار معافى فسقى وحمل الطشت ذات ضحى راجعاً مسرعاً إلى المنازل تسمر منتبهاً عند رأس العالى ، كأنه غير مقرر أيحول طريقه مباشرة أم ينكس رأسه ويمر بالقرب منهم فى إنهماكهم ، كأنه لا يختلف عن أى واحد من القرويين ، يسير خافضاً كتفيه يحمل تحت ملابسه المبتلة أعمق الأفكار بشأن ما ينتظره هنالك فى دارهم من شواغل . لكنه بدلاً من الإسراع مبتعداً ثبت فى مكانه وسط الطريق ، توقف مرة واحدة ، مثلما يكونون قد أصدروا إليه أمراً منتهراً من وراء ظهورهم دون

أن يتوقفوا عما يفعلون . الذين رأوه فى أطراف الحيشان المجاورة وصفوه بأنه بدا كالذى إنبهت، وخاف فارتجفت رجلاه ولم يستطع أن يحدد شيئاً من أمره أو أن تحرك ساقيه أبسط دوافعه . إستقام ثابتاً هنالك قابضاً الطشت الثقيل متدلياً على سردوب عارضيه ، رأسه ناشف على إرتفاع وسيط ، ترمش عيناه سريعتين ممسوكتين عندهم بمتابعة متفانية للأغراب الثلاثة المنهمكين بين ركام الطوب يبنون فى عجلة ضائعين عن طنين البلدة ، يجزون فى الحطام أشبه بضباع ثلاثة تنهش عفناً يابساً على أطراف أرض بلقع . من حديثهم أوقع الطويل النحيل نظراته جانباً من فوق كتفه على الطريق فثبت تيقظه لحظات على حاجى ، وثبت تيقظ حاجى على مافعله فاهتز لسويعات وتحرك وأسرع ففاتهم ودار بعيداً فدخل بالشارع الوسيط وغاب عن مرآه ، وبقى يحملق فى علا الإرتباك الأغبر من رديم الحى إلى الشمال، حتى ضاع بصره فى خضرة اللالوب الممتدة وراء البيوت فى الخلاء . أوجع عينيه الجرى خلف أكوام القطاطى فانتبه حاضراً وأخذ يحتار بتعجب بارد فيم كانت كل المطاردة .

سأل عنهم فأخبروه بما رآهم يعملونه ، جاء الثلاثة فى العربة قبل ليلتين وأنزلوا لفائف السلك وأكوام من الطوب والخشب داخل سور الشفخانة وباتوا هناك، فلما أنار بشير الصباح المكان قاموا يبنون . تحدث الناس مع الحكيم فعرفوا أكثر من ذلك . عندما تأتي العربة ثانية سيكونون مستعدين للعودة إلى المدينة وسيسلمونه العنابر فى حالتها الجديدة . شكر أفاضل البلدة للحكيم هذا الجهد والإهتمام ، وأقرظوا لفتات أهل المدينة ونظروا للأغراب الشبان نظرات تلهج بالترحاب ولم يروا خيراً فيما من شأنه أن يشغلهم عن إكمال خدماتهم ، لم يسالمهم أو يكالمهم أحد طالما أنهم لم يشهدوا منهم دليلاً على الرغبة الأكيدة فى التسالم والتكالم والتداخل مع أهل البلدة .

تحت قيظ الظهرية كان الطويل النحيل يتحول بين الميلانات الأربعة

على مخروطية سطح العنبر المقابل للطريق عند حافة الشوك ، يمط ويدفع ويجرجر فى الأسلاك ويضرب على الأعمدة الحديدية المزعجة الصدى ، ثم لما كانت العصرية صعد له الأثنان كذلك ودسوا أكوام القش بين الأسلاك وربطوها ، وفى المساء نظر كل الساكنين فى الجوار والمتجمعين من أطراف السوق إلى البناء التام ومدحوا مقدرتهم الشابة ثم ساقوهم معهم إلى المقهى وجلسوا حولهم حتى وقت متأخر من العشاء . فى الغداة أتموا العنبر الثاني ، وصعد حاجى مع خال ود أم عجب بالطريق الجنوبي فلم يعلم بما كان وتجاهل ذلك الموضع قرب الشفخانة حتى إذا جاء المساء رآهم فى جمهرة عند الطاحونة يتضاحكون . جاءت العربة فى منتصف تلك الليلة (نفخت فى محركها زمناً طويلاً فى بطن الليل حتى تأكد صحو الناس جميعهم وسماعهم لمجيئها) وفى الصباح قالوا أنها تقف أمام نقطة سلامه ، وقال أحدهم أنه شهد أحد الشبان الأغراب يكالم سائقها . لسبب تافه غير معروف صعد حاجى فى الضحى بالطريق العام فلما بلغ قمة العالى تماماً فاجأه هدير المحرك قدامه وجرى إلى الأمام فرآها تترك طرف شوك الشفخانة وتدخل بين بيتين متجهة نحو الإنحدار إلى الطينة ، حاملة نتفاً من السلك وعيدان خشبية طويلة مبعثرة على صندوقها ، ولمح الدلالة على شخصين بداخلها مع السائق . ثبت فى مكانه يتسمع إلى تغير صوتها على الإنحدار ثم إلى تبدل الهدير أزيزاً مستديماً وظهر له فوق سماء المنحنى الطينى مرتفعاً على رؤوس القطاطى غبارها فى السفل ، وإبتعد أزيزها وأصبحت خيالاً فى رأسه لفترة وظل يستنط إلى ذبذبتها الخافتة فى الهواء لمدة .

مشى فى طريقه متكاسلاً مبارياً حطام الطوب المبعثر بعيداً عن العنبرين فى جمالهما الجديد فلم يلحظ فى خموده ذلك الطويل النحيل منهم منحنياً يبنى شيئاً مربعاً أمام راكوبة ود سليمان فى الطرف الغربي القصى من السوق لذا لم يكن ليتوقع شيئاً فريداً ، متدلياً فى المساء (لم يستطع أن يتعرف على لحن المستغرب يكاد يتغير لأجله حركة الكلمات فى لسان جده منفعلاً النهار

يشرح للفكي محمود شيئاً ظنه حاجي ضمن أحكام العمدة فإستغفله) متجاهلاً ماحوله في عدم درايته يرفع نظرات شاردة حواليه على قدر من الكآبة . طلع على الغريب الطويل باركاً خلف تربيعة الطوب الأحمر ساكتاً في أفعاله ، وثبت حاجي فوقه تماماً وعندئذ تثاقل قائماً عما يعمله، وتمطى طوله فأطل به على عيني حاجي ونظرا إلى بعضهما عن قرب . كأن الغريب الطويل قد نتف بعنف على إحساس حاجي فلم يخلص فيه إمتزاج المباغتة والرهبة وسقط عنه كلية إلى الآخر إتزان إتجاهه ومسيره . قال له فلقه بهـدوء .

— ود سليمان ؟

إستمر حاجي يحلق في وجهه ولاينبس بشيىء، وفي عقله يتردد له كلام جده إعادة لانهائيه لافكاك منها، ويسترخي عليه بخموده وحيرته مثل غطاء مشبوك على إحساسه (جا أمبارح لشيخ السوق أنحن قاعدين . . آاى لمنصور . . قاعدين في القهوه . . كان معاهو الإتنين المشو ديل ذاتهم . . قال فوقنا « شيخ السوق وينو ؟ » . . قال ليهو الوليد أحمد « ياهو » . . . منصور قال ليهو « آاى يا أسطى » . . قال ليهو « بقولو ماعندكم سمكرى؟» قال ليهو منصور « السمكرى شنو ياود أخوى ؟ » . . نط ود الزول داك يا خوى . . ود الزول إسمو شنو . . نط العراف مقاطع منصور قال لمنصور « السمكرى ما أسطى في الصفائح والبراميل . . صنايعيه يا أب منصور . . كتار في المداين » . . دا الطويل دا شاف ليهو قووى . . وساكت ليهو . . بعدين الطويل لفت لمنصور . . منصور شاف ليهو دا ما قال ليهو حاجه، قال ليهو منصور « ترا السوق بعرف صنايعنو يا أسطى » . . عديل قال ليهم « السوق نطاح بكسبو الشديد » . . ياتو كدا من الناس ديل قال كلام كدا ضحكو ليهو . . منصور قال ليهو « يا أسطى خلى لى حقوقى وسوى شغلك ويا أخوى ولاتتعب كمان قال تبنى محل . . أنا ببيع ليك راكوبة ود سليمان غرب هناك . . شفتو ؟ » . . دا الطويل دا سنط قال لمنصور « بفتح بشتغل

وليك حقوقك » . . منصور هز راسو كدا قال ليهو « أفتح الراكوبه أدخل إشتغل فوقو يا أسطى للدايرين . . السوق أصلو خلاص براهو مارق من إيدى من أيام . . الرازق كلو الله » . . قلت أنا ليهم يامحمود . . مالقو درب البلد دا ؟ والله الجا وضاقو مايرجع تاني . . قول دا واحد كمان إتأخر هنى . . كل يوم ترازايدين ما ناقصين) . .

— إنت ماود سليمان ؟ .

عاد حاجى يبحلق فى وجه الغريب بانتباه مسروق ولم يقل شيئاً . تركه الغريب ودخل إلى الراكوبة وعاد بكسار الطوب وبرك يبنى ساكتاً عنه . كإنما صحا حاجى إلى موقفه غير المريح وتشبث فجأة فى لسانه الإسم المكرر فتقدم منه ووقف خلفه يردد له .

— أنا ماود سليمان . . لا لا . . أنا ما ود سليمان . .

لم يتحرك الغريب الطويل ولم تدر إليه عيناه عما يفعله .

— إنت منو ؟ .

— أني حاجى ود مختار . .

— مرسل لى ولاداير منى حاجه ؟ .

كإنما يستغرب حاجى فى نفسه ولم يرد وبقى فى وقفته يفكر فيما سيقوله له ، متابعاً مايقوم به الآخر فى شرود تام ، زاحفاً خلفه دون أن يدرى كأنه مربوط إليه وكأنه يجره وراءه ، الوجه النحيل ترفرف حوافيه كل آونة بفناء إحتماله . توقف عن البناء ولم يفعل حاجى شيئاً وعندها نهض واقفاً وقبضه من يده فى سهولة ونظره فى عينيه .

— أسمع ! . إنت طالبنى لشى ؟ .

رد عليه حاجى هازاً رأسه :

— أني ماعرفت إسمك . . لا لا . . أني ما داير منك حاجه كدا . .

كإنما تتحرك حوافى الوجه النحيل بفهم جديد ، فى وقفتهم يطول عليهم النظر ، ولم يلبث أن إبتعدت أركان فمه فى حركة سريعة وضحك فى وجه حاجى ، ولم ير حاجى ضرراً وكإنما أمره الآخر أن يضحك فضحك له ووقفا يتابعان مايتبادلانه لفترة ، ثم ضرب الغريب النحيل على كتف حاجى .

– إسمى فلقه ياصاحبى .. خليك معاى شوف .. أتبعنى كدا طوالى بس أوعك مره تقول لى يومين تلاته كدا دايرني أعلمك السمكره ولاالبنا .. أوعك .. عشان تشتغل ليهم إنت بكره فى سوقكم ويطردوني أهلك من بلدكم آ؟ .. كويس ياصاحبى ؟ ..

هز له حاجى رأسه وجلس الثاني إلى عمله بينما تابعه هو بانذهال حتى فيما كان يبنى ويربط من أسلاك وقطع حديديه فى أسفل تجويف تربيعة الطوب الأحمر . ظلا يدوران فى ذلك الوضع جزءاً كبيراً من المساء كإنهما قطعتى آلة طاحنة متآكلة بطيئة . بعض الملتفتين ينظرون إليهما ويحزرون بشأنهما ، لم يقولا شيئاً يذكر لبعضهما ، فلما فرغ فلقه أقفل الراكوبة وذهبا إلى قمة العالى ، فجلسا مع مغيب الشمس يرمقان الأفق الدموى عبر الوديان ، تتراقص فوق وجهيهما علائم إلف غريب ..

لفترة ما إنسجنا على دكنة العصرية راكدين بتغير ضئيل ، يكتسيان كل مرة فى أعين الطالعين والنازلين عادية منغلبة على أمرها ، وفى أنفسهما كأنهما يتطبعان تدريجياً على مزيد من التقارب والإنبساط ويتحدان من تفردهما فيتقوى فيهما معاً ذلك الذى يربط صداقتهما من إنجذاب . كانا هنالك والشهر يمضى ، ويتبين الصاعدون على قعر التل فى خفوت فقفقة ضحكات حاجى ويراه من يمرون بأطراف السوق يتشبث بكتف فلقه وعندها يصيب بعضهم الإرتياب بشأن ماينقله من خبر يعلمه فى الأحياء إلى ذلك الغريب المتباعد عنهم . تتتابع كعادتها الأشهر ، يدوران الآن حول

المجتمعين ويبتسم وجه فلقه من تدفق كلام صاحبه على وعيه ، لايجد الناظرون بعد هذا الأوان مايفعلونه بشأنهما أو يظنونه عنهما فيتقبلون مايرونه منهما برضاء يائس ، يحتسبونها بلاهة لاضرر منها حتى على أصحابها .

من عرفوا الآن فائدة للسمكرية ، الذين وجدوا تحت أيديهم صفائح فملؤها شيئاً إعتبروه ذا قيمة لايرتضون لها الأساليب القديمة فى سد الأواني حملوها على حميرهم وجاءوا فرصوها له أمام راكوبته ، يدخل ويخرج محملاً بالمشابك والقداديم ينتشل من النار المتجمرة تحت مربع الطوب نحاساً محمراً وحدائد حامية، ثم يضرب على رقائق الطشات حتى يقفل المارة بجواره آذانهم من الصخب . قالوا عن إنشغاله الدائم أن السوق وجد صنائعه ، وقالوا أنه يكسب مالاً كثيراً منهم ، ولم يتخذه أحد من المترددين عليه ركزاً كما لم يعتبرهم من جانبه زبائن ، وبقوا فى التعامل على البعاد . فقط كان حاجي يدخل إليه عند الظهريات يجلس بجانبه ولايمسك شيئاً ولايكسب مالاً ويتحدثان فى أشياء غير معروفة قبل أن يقفلا باب الراكوبة فى العصرية عند تطاول الظلال ويختفيان بعد دوران صغير فيتر كان لأهل السوق الفرصة للكلام عنهما . فى الليل يعود إلى بيتهم ويراه السقاة فى البواكير يتهر أبقار مختار ويمر فى الصباح بطرف السوق عندما لايكون صاحبه قد قدم وفتح ، متحفزاً مسرعاً بإتجاه الحى الشمالى . كان كما يذكرون ضحى حاراً كالمعهود يوم ثار على مأمون ووقع منه عليه ماشهدوه فانقلب ضده مختار ، وكان ماجرت اليه أموره مما تكلم به الناس بعد ذلك ردحاً ، وتحرك به مستقر فلقه إلى ركن جديد .

الذين حضروا هزوا رؤوسهم عجباً ولايزالون يهزونها كلما تحدثوا كيف أزعج الغريب الطويل مأمون دون سبب يستطيعون قوله . كانوا فى الطاحونة واقفين ، مأمون يزن الوارد فى الصباح ويتجاذب مع المتجمعين عليهم من قاطنى أطراف السوق أطراف القول، وفلقه يستند بجانبه إلى ركن المبنى فوق الميزان تماماً ، ينحنى بطوله على مايرفعه القادمون إلى صحفة

الميزان ، تلمح جانبى فمه بإبتسامة غريبة كلما سقط جراب أغبر على إرتجاج الميزان ، ويزّن صدره بخفوت ويتململ مأمون على مقعده . كأنه لبعض من رأوه ينظر إليه بأركان عينيه فى تكشيرة خاطفه وتقبض أعصابه كلها ثم يستدير ببشاشته إلى مؤنسيه . فى كل خطفة تأتي تلك الرّنة ويأتي مأمون بتلك الحركة ولايتبدل عند فلقه فى إنحنائه على الميزان والمتاع الساقط شيىء ، كأنه مسحور فى غيبة من شـــهد مندفق فى داخــله . قالوا أن مأمون بدا كالذى لاحظ شيئاً فى صمت ونظرات عبد الرحيم بسوس إلى فلقـــه ، لم يحول الرجل عينيه عنه لدقائق وبدا وجهه المريح يكفهر . ولم يقرر مأمون أن ينهض واقفاً حتى ألقى العجوز القروى ضئيل الحجم بكيس التكاكى على الصحفة ،وعصر صلبه معتدلاً وتنهد ، لم يجد مأمون الوقت، كأنه يصرخ عالياً حتى ينحبس ماكان يبدو واقعاً فى لمحة . إهتز المبنى بقهقهته ومال على ركن الحائط وجلجلت قهقهاته فى جوف البناء مغلفاً سكوت الأهلين وإرتجاف مأمون بالتأسف والغضب ، ثم تولدت فيه قهقهات أخرى وضرب البناء بيديه ودار عليهم فلمعت فيهم عيناه وشهدوا نواجزه وإرتعد مأمون بتوقع ماسيحصل لو قفز عليه أحدهم فهبط شبحه أمامه وأصبح صدى فحسب ، وثار فيه هو الآن هياج شامل فصرخ :

— أسكت يابليد . ! أقفل زفتك دا يازفت . !

نط عليه بسوس فمسكه من يديه وإنتفض مأمون فجدع بسوس على جانبه وتقدم من فلقه الذى سكت الآن ولم يتحرك ، لم يبلغه بعد عندما إندفعت يده وطرقعت صدى صفعته على الوجه العالى فى جوف البناء . نطوا ممسكين به مصارعين هياجه فلم ينتبهوا ولم يتبينوا إنسراقات نظرات ذلك الطويل النحيل عن الوجه الغاضب إلى ركام الأدوات وراءه ، كلمات مأمون تتواقع على وجهه عالية حارقة آسرة لهم . .

— ياقليل أدب . ! بقول ليك مية مره تتعلم تحترم كبارهم . ! بقول

ليك البلد دى بحترموا ناسهم لو تسمع لى . .

وهوى فى أيديهم فى خطفة بلمعان القضيب أعلا رؤوسهم ثم كان ذلك الطويل النحيل عند باب الطاحونة رافعاً مابيده ، تلمع عيناه فى وجوه الذين دخلوا فى الفراغ بينهما . لم يقمه أحد ونفض يدىبسوس عنه وقفز الرجل أمامه فلم يترك له مجالاً للتقدم من الغريب الآخر . إنحدر هياجه من قمة الإرتفاع إلى ترديد قوى يتقطع بالتوقف لمسح المسيل الأحمر المتدفق من رأسه على فمه وتفافه على مواقع قدميه قبل أن يرفع اليه رأسه ثانية .

— يابليد ! . ياقليل أدب . ! يازفت . ! بقول ليك تتعلم تحترمهم . ! بقول ليك ياتافه . ! لو تعرف كيف تحترمهم . ! لو تشوفهم يابليد . . تعرفهم وتبقى بنى آدم . !

حافظوا على إمساكهم به محيطين بمجاذبته وفورانه غير مكترثين كثيراً لذلك الطويل النحيل لايزال مكشراً نواجذه فارداً يده بلمعان الحديد عند الباب الكبير ، منتظرين على مصارعة مأمون ، تخمد فيه القوى ويخفت كلامه ويجلس على صلبه منحنياً إلى الأرضية الصلبة ثم يرقد على ظهره ويتمدد تعلو زفراته فى وجوههم باستسلام غاضب . إلتفت إليهم بسوس بهدوئه المريح .

— واحد يمشى ينادى لينا الحكيم ياجماعه . .

غير بعيد من مضى الرجل رفع عينيه إلى الطويل المتكئ عند عمود الباب الحديدى مرتكزاً على القضيب اللامع وتبادلا النظرات صامتين ، والبقية تنظر إليه متماسكة فى نفسها ، تتحدث تحديجاتهم إليه عن إنعدام روابط الدم بينهم ومأمون ، عن حسن حظ الغريب الطويل بذلك ، يرون ماكان سيحدث له لولا ذلك فيهزهم شيىء فى داخلهم ،ويزيد مايهزهم منه فتزتجف أجسادهم كلها بمكبوت الحنق . جاءهم الطبيب قبل الأخير ، ذلك العجوز البطيىء الميت النظرات. أسندوه له ففحص الجرح لمدة وإعتدل ،

فألقى نظرة على الغريب الطويل فى وقفته ولم يستدر عنه إلى بسوس عندما قال :

— دا بحتاج لأورنيك من المحكمة ياجماعة . . تورو المحكمه والمحكمه تحولو لى .

قام وربت على صدر مأمون ثم ذهب . لم يتحركوا لبرهة وقال الشيخ يعقوب :

— مالعمده هو عارفو غايب . ! المحكمه ترا الباقى فوقو إلاكان مختار . . هو ماعارف ؟ .

قال لهم بسوس بهدوئه الأول :

— واحد يمشى ياجماعة ينادى لينا مختار . .

وجه الغريب النحيل أصبح أقل تقبضاً ، يكاد يعود إليهم التأكد من تحرك ركنى فمه بتلك الإبتسامة الصغيرة ، يشيح عنهم بعيداً إلى الخارج ، ويعود ينظر إليهم ، يتحركون كلما حاولوا مكالمة مأمون وسط زفراته أو مر أحدهم بقربه من باب الطاحونة حاملاً جرابه وأولاه ظهره غير مهتم متجهاً إلى السوق القريب . وجد الرجل مختار فى بيت عبد الله ، فلما أخبره نهض على عجل وقدما إلى مبنى المحكمة . لحق بهما عبد الله وجابر فأعطى البندقية لعبد الله وأخذ هو الدفاتر والأقلام وقدموا . وصلوا هنالك والمزيد من قاطنى حى السوق يتوافدون إليهم ، وقالوا أن مختار رأى الناس كلهم أمامه ينظرون إلى ماسيفعله ، فلم يكن فى مقدوره ألايكون حاراً معه . بقع الدم التى بدأت تجف الآن ملأت قلب الطاحونة وإنتشرت حلقاتها تحت الطبقات المسودة من ساقط الدقيق وإمتزجت رائحته فى كل مكان من جو الطاحونة بنفاذ مزيج التنفس والعرق الساخن . أقاموا مأمون إلى صحفة الميزان وتبينوا فى الجرح بإمعان ، وكتب منه جابر طوله بالأشبار وما أندفق من دم على الأرضية ،

وذكر القضيب لايزال في يد فلقه المستند جانباً يراقب فيهم ببرود ، وختم مختار الورقة ثم ناولها إليه ، أقامه بعدها جابر وبسوس ودرجاه خارجين به إلى الشفخانة . كما لم يتوقعوا جميعهم إقترب منه مختار في هدوء وسأله :

— ضربتو مالك معاهو يافلقه ؟ ود كلاييه منك مش كدا ؟ ياولدى دا ما بلد أبوك ولابلد أمك . . تجى تقتل فوقو أولاد الناس ؟ تندم ياولدى . ! والله العظيم تندم . ! تشيف البطال قبال العمده مايرجع دا . . تضوق الويل ياود الكلب . !

لم يحول فلقه عينيه عنه وسكت المتجمعون يستمعون له وأصابعه الرقيقه تؤشر في عيني فلقه وعيناه تبرقان فيه بتواقع الشتم والتهديد .

— عبد الله يسوقك من هنى دا بالبندقيه للسجن الضلمان داك قدامك كن ماعارفو . . في الضلام والحر والناموس . . تقعد مكلبش لايشوفك زول ولايسمعك زول . . لما العمده يجى . . قبال ولد الناس دا يبقى طيب وتتحكم . . القيد يقطع لحمك دا وتعرفو . ! شيف كدا الوجع دا كيف ؟ . واللثامه القاعد تسوى في البلد دا . . نقدر نأدبك منو ولا لا ؟ .

الجمع كله يسمع وينظر إليهما ويرى مايقوله مختار فما أن يتحول مايرونه إلى تفكير فيما يقوله الخفير وينظرون إلى فلقه حتى ينحدر يجرى له في صدورهم كأنما رغما عنهم خيط رفيع من الشفقة والعطف ، لايزال مختار يردد متلفتاً حواليه إلى ما سيفعله فيه أيضا .

— تندم ياولدى . . تندم ! .

ساقه عبد الله مغادرين تاركين مختار ليخرج الناس ويقفل الطاحونة ويتأكد بشأنها، ثم يذهب في أثر جابر وبسوس ليطمئن على مأمون . حتى المساء، كان جميع أهل البلدة قد سمعوا بما حدث، وعرفوا مافعله مختار بفلقه وذهب منهم مريدو مأمون إليه في العنبر وإطمأنوا على صحته ، ثم سبوا فلقه

وأشادوا بصواب رأى مختار فيما فعله به . وبقى بعدها على الإنتظار فقط ذلك القدر الكبير من التساؤل عما يركن وراء مايحدث عند مامون وأهل بيت مختار من جراء صداقتهم لقلقه .

عشرة أيام كاملة قضاها فى الغرفة الحجرية ذات الشباك المفرد الصغير فى أعلاها . من كانوا يمرون بالساحة يدرون به فى ذلك الظلام وحده وقد نسيت الضوء عيناه وعقله المغرور فى فكرهم بكى بألم الجسد والروح وإستذل حتى لم يعد هو نفسه ليصدق بماضى صلافته وتعاليه ، أصبح فى نظرهم مزقاً يائساً ذليلاً إذا ماحصل وحن له قلب مختار بصدفة ما وجاء وأطلقه الآن لوقع عليه فوق كتفيه وبكى عليه كأنه أبوه أو جده . فى الأيام الحارة من الأسبوع الثاني تكلم الناس مع مختار بشأنه وضغط عليه كبارهم خاصة . قال له بعضهم أنه إبن مدن وأنه سيموت هناك فيرتكبه جريمة لم يتوقعها أولاً عندما أعلن ما أعلنه، وثار عليهم وذكرهم بأن مأمون إبن مدن كذلك وأن تلك الإصابة تكفى لقتله . إستحلفوه بالشفقة عليه ، ذكروه بأنه بمثابة إبنه صاحب حفيده ، يعيب عليه التعقل ذاته معاملته بهذه القسوة ، سكت عنهم غاضباً ولم يجبهم . حاوله الكبار الشيوخ بالغلظة عليه والتهديد له بما سيجنيه من العمدة فى أخذه لأمور المحكمه على هواه ، شتم لذلك الشيخ يعقوب نفسه وسأله إذا ماكان يضمن له قلقه فيطلقه حراً يذهب، فلما تقطعت ألفاظ الشيخ إنتبذه مختار بين حلقة الناس كلهم حتى غضب منه العاقلون وإنتهروه فسكت . تركوا جميعاً ذلك الأمر ، وباتت البلدة تلك الليلة على قدر هائل من الخلاف .

صباحاً ومساء تأتي إليه حوه بالطعام ، مرات يرافقها حاجى ، ويحضر مختار عندما يفتح عبد الله أو جابر عنه الباب ويتسرب الضوء إليه فى الركن فينظر إليهم ويسلمان عليه ويكلمانه ، يقف مختار جانباً عنهما، يتبادل معه النظر ولايتفوه إليه بشيئ . الشيوخ غير المرتاحين يحضرون وقتاً متأخراً فى الضحى ، يحييه بعضهم من شقوق الباب ويقفون مع مختار أمام المبنى يسألون

عن أمور أخرى بجانب أخبار العمدة . مختار الذى يتابع تقدم مأمون إلى الشفاء (يمر عليه كل يوم فى العنبر ويسائله) عرفه قادماً من بعيد ولم يروه هم وفاجأهم بإقترابه فتجمعوا عليه يحمدون سلامته وينظرون إلى الموضع العارى من رأسه بعد أن قلعوا عمامته . ضحكوا كثيراً ولم يتدخل مختار حتى قال لهم مأمون ماجاء لأجله وسكتوا مستمعين إليه محولين أنظارهم إلى مختار مستغربين بجدة مايقوله . أوضح لهم مأمون ما أراد .

— أنا عارفو هو قليل أدب . . أصلاً ماعندو إحترام يوم لزول . . لكن أطلقو ياعمى مختار . . أنا مابقاضى فلقه لإنو ضربنى . . كفايه أنا بعرفو من أيام لعب الشوارع أيام كنا صغار . . ياهو دايما زى دا . . بعرف تمام أخلاقو ونفسو المعفن الضعيف دا . . البليد . !

أمام أعينهم ، فى عدم إكتراثه الغريب ، أخذ مختار المفتاح من عبد الله وفتح الباب ودخل بعيداً عن أنظارهم ومكثوا صامتين على أنفاسهم حتى ظهر فلقه منحنياً عند الباب يفرك عينيه ويرمش ويدارى الضوء المنصب على مقدمة المبنى ، ثم جلس هنالك عند العتبة يرفع إليهم عينيه بين الحين والآخر وهم ينظرون إلى إتساخ ملابسه وبرقعة جسده النحيل . جر مختار الباب من خلفه وأقفله ومر بقربه فى جلسته فأتي إليهم . إنتظروا له حتى تثاقل متوازناً على إنحنائه ، ووضع على وجهه نظرته تلك الفارغة وجاء تجاههم ، وقف ولم يقل أى شيىء ، ولم يحول عينيه عن مأمون ولاتحرك خط واحد فى وجهه . قال له الشيخ يعقوب .

— مأمون قال لمختار يفكك . . قال مابتقاضا معاك إنتو أخوان . . إنتظروه فلم يقل كلمة واحدة ولم يتحول عنده طرف فأضاف له الشيخ يعقوب مرتفعاً به حرارة القول :

— إنت ضربتو ياولدى . . لاتقولو معليش لاتتأسف ليهو . ! لاتقولو

شكرا حتى ؟ . ياولد قلبك دا كيف إنت ؟ . بليد ! .

في الإنتظار لم يحولوا أعينهم عنه ، وتولدت الآن أطياف من الإستنكار والغضب في وجوه الكبار ، كأنهم سينفجرون فيه يقولون له شيئاً قاسياً أو يضربون على إتجاهه بأول مايجدونه تحت أيديهم . قال المأمون :

— دايرني أقوليك شكراً ؟ قول ليهم يرجعوني تاني . .

كأن الشيخ يعقوب سينتفض يقسم بإسم الله والكبار والبلد أجمع أن يعيده مختار هنالك ثم وقع صوت مأمون قبله فأسكته بفم فاتح .

— أمش يافلقه . . أمش . !

إستدار عنهم وذهب تاركهم يهمهمون ثم يتجادلون بصوت عال ، يتوسطهم مأمون ، وإنقضى الضحى عليهم ولم يبرحوا المكان ، متزايدين بالجدال كل آونة. أسكتهم جميعاً سماع الصدى على البعد فهدأوا وصمتو وبقوا على حالهم والطنين يزيد وشريط الغبار يصعد بعيداً إلى الشمال ثم يقترب ، إرتفع أزيزها عبر العالي وظهرت على الشارع الغربي ،وإندفعت مسرعة حتى وقفت أمام بوابة العمدة . شملتهم الفرحة أجمعين فتحركوا إلى هناك وإحتضنوه ثم لم تلبث البلدة أن وعت كلها بوصوله . حامد يتغالط معي بعض الأحيان بأن قدومها هذه المرة كان بعد أن جاء أهل المدينة وأحضروا سلامه ونقطته ، وأسميه أنا مجنوناً لأنني مقتنع أكثر منه بأن تلك كانت المرة التي تلي هذه ، حينما أستقبلهم العمدة وجاء كل الرجال في صباح الغد فسلموا عليهم ووضعوا بالهم على سلامه ورجليه ؛ وأخبرهم العمدة مؤخراً بما جاء أهل المدينة يفعلون .

نقل فلقه حاجياته على ظهره من بيت مأمون إلى الراكوبة ورآه أهل السوق يرميها في الركن الداخلي،وقال كثيرون أنه سيذهب الآن مع العربة . قالوا أن البلدة لاحق لها في معاملته بهذه الصلابة وهو الذي ترك أهله في

المدينة وتغرب هنا ليخدمهم ويفيدهم . ضحك لهم العارفون وأشاروا إليه يوقد النار تحت مربع الطوب ، وفى النهار سمع السوق علو طرقاته على رقائق الصفيح والطشات . توقع بعضهم أن يبلغ العمدة ماحصل ووراءه ويتمسك كعادته الفريدة بأن يعرف السبب ، بأن يعدل وأن يعاقب المخطئ ويأتي بالحق لصاحبه ، فيطلب مأمون وفلقه غصباً عنهما إلى المحكمة ويفتح بذلك ما أخفاه مأمون ، ووقع فلقه عندئذ . عادا يمران مع حاجى على أطراف السوق وينزلان حيناً إلى العتمور ، يتبعان ظلمة الوادى مبتعدين معه أو يتوغلان فى الوديان دون غرض أو هدف . يلقاهما القادمون أحياناً بعيدين يقفان متجهين بطولهما إلى الشرق يرمقان غبشة البيوت على العالى ويقهقهان بالضحك . أخبروا مختار بذلك وتكلم الناس فما إهتم بل نفخ لهم صدره كأنه يعتز حقاً بما يفعله حفيده والغريب الطويل . سأله الفكى محمود بنفسه فرد عليه بأنه سيتعلم منه أخبار الدنيا الواسعة وطرائقها ، يتعرف على طبائع وكلامات أهل المدن ، ولو كان متفكراً كما يملى عليه مختار فسيتعلم منه صنعته بالمراقبة فقط دون أن يشك فيه فلقه . يقول له فى جلساتهما :

— فلقه يازول إبن كلب . . لكن صاحبك كن إبن كلب إستفيد منو ووولا يهملك قول الناس . . مهم الفايده يازول . . أمور الدنيا ديل كلهم فى رآسو يعرفهم منو وأنا دا ذاتي بجرو منو وكن الطرد بطرد الكلب لكلابو . . آآ ؟ يالفكى دى الدنيا ! .

أحمد مختار يكاد يقتله الغيظ من والده وأخته . فى بعض الأماسى ، أخبروه ، أنه يأتي مع حاجى وتقدم لهما حوه شراباً بارداً ولايكون مختار فى الدار . إذا ماشاهد مختار على الشارع لف بآخر مشيحاً عنه ، هكذا شهد كل أهل البلدة. مختار يسميه الفكى محمود ميت النفس فلايزيدعلى الضحك ، يرد عليه :

— أصبروا لينا . . أصبر يالفكى ! .

هددها أحمد بأنه يوماً سيؤذيها وحاجى إذا ماجاء ووجده معهما فى

دارهم ، ولم ينفع ذلك أيضاً . على عينيه يقرأ أصحاب الأقوال القديمة إزباده وعرقه ، يجمع الآن أشواكاً يشرك بها للدخيل عند تلك القدود التي إنفجرت منكشفة خمسة عشر عاماً ماضية في بيت مختار ، ويضحكون على أركان أشداقهم لأفاعيله . ذكّرها وذكّر مختار بأنهما رأيا بعيونهما المتعقله مافعله في زميل صباه وصاحب منازله في ذات الأوان . يقول لهما ، يوماً ما ستجدينه وستجده أنت مكسور الرأس مجدوعاً تحت إحدى الأشجار ، تجدان مجرد عظامه منهوشاً في مجاري الوديان الكثة ، وهو مرفوع الرأس يتخطر هنا في بلد ليس له فيه ولم يكن له فيه أم أو أب أو جد . أخاف ذلك حوه كثيراً لكن تغلب عليها إنجذابه الغريب إلى صاحبه، فلم تقاوم وعادت تعلمه بوجود الشراب البارد في الأمسيات المتباعده . في نفسها تدري بأنه لم يعجب بأحد في البلدة كلها ولم يعجب به منهم أحد ، وعندما يتمسك بفلقه لأنه يجد منه كل الهوى تسمح هي لأقوالهم هولاء الذين لم يعيشوا معها ماشهدت معه بأن تؤثر فيها وأن تنقلب ضده تنكد عليه فرحته تجلس إليه تنصحه ويجلس إلى مختار يدله على مايفيده منه ، ويراه أحمد مختار خارجاً إليه مداوماً معه فيعض على غيظه الصامت ويدير إليهم عيناً حمراء متكدرة .

شهد الناس كل هذا . لم يعد حاجي يصاحب أحمد أيام الأسواق يحمل عنه جرابه ، ولم يكن بالآبار في العصريات يسقي له جماله . كانت هذه أيام إشترى فلقه بيته الحالي وإنتقل إليه وبدأ أهل السوق يتعودون على حوه وعلى مختار يسألانهم عن حاجي وتتحور أعينهما باللمحات التعبة القلقة عليه . في سخطه الصامت لم يكلمهما أحمد مختار عنه لمدة طالت ، وبقي على مخنوق عذابه من غباء أبيه وأخته وبلاهة ولدهما العمياء ، يتحدث للمخلصين له القول عندما يطفح به الغضب بأنه يعرف لكنهما لايعرفان أن فلقه لن يفيده بشيىء، بأنه لو رآه يتعلم منه أسرار الصنعة بقلبه فقط لهجم عليه وإنتزع له قلبه ذاته حتى لايستفيد منه شيئاً . بأنه هو الذي يؤلبه عليه ويمليه عدم

الإهتمام بمشاعر أمه وجده وبأهل هذا البلد أجمعين . سيعلمه فقط شيئاً سافلاً لم يحسبانه له أمه وجده بإستغفالهما له، شيئاً يستعوذ له أهل البلدة كلهم كارهين ، وإن لم يفده أعطاه شيئاً مثلما أعطى مأمون . يرون في عينيه خمود الحيرة الشاملة ولمعان إندفاع محبوس ، يكاد يصدق في نفسه بالأقاويل عما يحاول أن يسده في بيت مختار ، يدرى بأنه يكدح لذلك كثيراً ، ثم لايعلم متى سيبتدئ حقيقة أبداً .

وجدوه يحوم بالسوق ذلك المساء يسألهم عنه ومنهم إتجه إلى بيت فلقه . بمجرد ما إختفى عنهم أخبرهم ود أم عجب بأنه معه هنالك . ثم كان الجيران هم الذين سمعوا بكل الحاصل عندما جاء بيت فلقه وضرب بعنف على باب الصفيح . ضرب ثانيه بعنف أكثر وبعدها كان فلقه معه عند الباب .

ــ قول لحاجى أهلو دايرنو . .

ــ مافى هنا . .

ــ فلقه ؟ . الله والنبى تمرق لى ولدى من بيتك ! .

ــ يا أحمد قلنا ماهنا . !

ــ أسمع . ؟ أني مامجنون ! . أني جيت نسوقى أمرقى لى ماتلبدى ! وحات المولى دا أني مابرجع بلا . . إنت داير السترة ؟ برى زمتك لزى لى برا . !

ــ ولو مالقيتو ؟ . أحمد ماتجى تتهجم على ساكت يا أخى . !

ــ أني ما أخوك يازول . ! وماتقول لى بتهجم عليك . ! أني قلت ليك داير وليدى . . سوقى لى برا بيتك وبغشاك ! . كن تابا بيهو بدخل غصب عنك نسوقى . ! وكن ماخشيت نحرقى ليك الليله دا لمن الناس ديل كلهم يتعوذو . ! ووالله ماتقول كلامى دا تراه كذب . .

من لايتعلمون الصبر فى أقل مايسمعونه خرجوا من بيوتهم، ولما تقاربوا ساروا إليهما ، يقفان عند الباب تماماً ، يرفع أحمد مختار وجهه إلى علوه ويتكئ فلقه على الصفيح ، فى وجهه تلك النظرة الفارغة عينها ، يتناظران وسط السكون والحرارة كأنهما لن يتحفز فيهما بطول إنتظارهما إلا المزيد من التناظر والسكون . أحاطوا بهما وارتفع الحديث بينهم وعندئذ سمعوا السقوط من خلفية الدار وإنفلت من بينهم أحمد مختار ، تحفر جدعاته الخاطفة الرمل حتى الركن وإستمعوا إلى سباقهما باتجاه منحـــدر العـــالى ووصلتهم صرخات الولد واضحة متتابعة ، وسد عنهم فلقه بابه الصفيح . عند طرف السوق ظهرا فى سمرة العشية يجره أحمد مختار من ورائه ويلتفت فيرمى بيده على وجهه فيسمعون صرخاته ويدخلان وراء الرواكيب ملتفين حول السوق من الشمال داخلين فى بعد الظلام .

أبرك أحمد مختار جمليه ودخل إلى أخته فلما خرج كان الرجال الثلاثة لايبعدون ثلاثين ياردة عنه مسرعين يرفعون إليه أعينهم وينزلونها فى تقدمهم. عرف أنهم جاءوا من كوم البياض فى الخلاء فإتكأ على الجمل البارك وإنتظرهم . جاءوا عليه رافعين أكفهم وإستجاب لهم راجفاً بوجيب قلبه . عزوه بصوت هادئ غير مسموع فلما إنتهوا أخبره الكهل منهم ونصحه بأن يتجه من مكانه إلى الشفخانة ، وغادروه . نادى على حوه قال لها أن تنزل الأحمال وتدخل الجملين إلى الحوش ومشى فى طريق بيت العمدة . مر بالمتجمعين على بوابة العمدة كالذى لم يرهم،ودخل يسأل عن والده ثم مرقا معاً يتكلمان بخفوت وجدية مكفهرة ، وإفترقا ، أسرع أحمد على شارع الشفخانة وأتبع مختار آثاره منكبأ نحو داره . العربة التى تركت الحى إلى الخلاء إستدارت فى مكان ما وكرت عائدة بطريق المواشى ودارت حول السوق غرباً ثم بردت فى الشفخانة . وفى وقت واحد علم الناس فى السوق وعند مجلس العمدة ، وتجارى الناس يميناً وشمالاً ، وإنطلقت من

بيت مختار صراخات رقيقة تمددت فى سماء الحى وتحولت عاجلاً إلى نحيب عام أعلن على البعد للجاهلين حقيقة المأتم . أتي أحمد مختار فى العربة والدار عامرة بالرجال ، وحمل الموتي إليهم فتقدم حاجى وتبعه فالقه وانفلتت منهن حوه إلى البوابة ، يقابض فيها مختار والرجال حتى سقطت عليها يد أحمد ووقعت على القصب ثم جروها إليهن . وانتظم أمر التجهيز على إمتداد النهار .

بين صفوفهم نتناوب حامد وأنا وزين الدين الطلوع والرجوع إلى ثار أحمد مختار وتخاطبهم يندمج ويتحد ، يدمدم الحوش الخارجى كله بوتيرة ثابتة عالية من همهمة ثقيلة ترددها مئات الحلوق ولاتتحرك الألسن إلا بإصعاد صوت أحمد ينادى على أحدنا مشيراً إليه من مسافة بما يفعله .حركتهم أغرقت، حتى النحيب لايسمعه إلا المتوقفون بالخارج والقادمون فى الحى ، تعلو إندفاعات أصواتهن فى حرارة النهار والنساء يدخلن ويخرجن مثقلات بما ينقلن . بين أكوامهم سرنا أنا وزين الدين ، بوسع ظل قطية مختار قدمنا الشاى للفقهاء وعدنا فإلتقت عيناى بعينى عمر وإبتسمت عيناه وحافظت على توازن الأكواز أمامى أرفع قدمى إلى الفجوات بين متلاصق الظهور قادماً خلف زين الدين . ستكون بنفسها بينهن فى الحوش الداخلى ولن يكون منهما رجوع إلى بيتنا قبل متأخر المساء ، أقفلته وأحكمت سده ثم جاءت على أثر عمر بماتحمل . أربعة من الفقهاء دخلوا إلى القطية وراءالموتي وألحقوا بجردل ماء ووصل عبد الله من السوق بلفة القماش ، وتسرب من الداخل إلى الفراغ الساخن رائحة عطر نفاذ فتلفت الناس بيقظة . سأل زكريا مختار عما إذا ذهب الشبان إلى المقابر فلما وجده لم يرسلهم مر بنفسه وسط التجمع وأقام تسعة منهم أرسل واحداً إلى بيت العمدة ليوصل اليهم الحفارات هناك . أنظر إلى حامد وينظر إلىّ فأحس به يتنفس بصعوبه ولاتتجرأ عيناه تسرقان نظرة إلى ظلام القطية ، مبارين مرتبطين بالموضع قريباً من النار وهامس التأهب للخروج يزيد بياناً فى أعين المتخاطبين .

وصل سلامه ووكيله ورجل البوليس ثالثهما . شقوا صفوف الجالسين إلى موضع مختار والفكى محمود تحت الراكوبة وراءنا وتوجهنا إليهم . لم أقم من أمامهم وأخذت وعيى عن القيام خطوط الصرامة والتوجع فى وجه سلامه ، تشير يده مرفوعة إلى وجوههم ومختار والشيخ عبد الرحيم والفكى محمود يتابعان إشاراته بإهتمام مهموم . صببت لهم الشاى وصببت واحدة أخرى للفكى محمود وقعدت على حالى غير منزعج لبقع الشمس الواقعة على أبصارى . يوضح سلامة للفكى محمود كيف يكتب الجواب ، بأنه سينتظر غداً فإذا ما عادت العربة بعد الغد يجدر أن يكون فيها أحد قرابته وإلافإنه وجمع من الشهود سيفتحون الراكوبة والبيت وسيجمعون مايجدونه فأما سلموها لأيماقريب له يظهر آنذاك أودللوها بالسوق لحساب المحكمة . وأنكب الفكى محمود على الورقة محيطاً القلم بكفه ومجموع أصابعه كأنه منخاس ، مقرباً الورقة من عينيه ينادى على الكلمات فرادى وجماعات ، متوقفاً عند المعاني الصعبة متمهلاً متأكداً من متابعتهم . خط أولاً نسخاً مستطيلاً مهيباً فى صدر الورقة :

كل نفس ذائقة الموت وإنا اليه لراجعون ،

إستغرق منه ذلك مدة وإستأنف من الحاشية .

— المكرم . . أخونا . . المفضال . . مولانا . . شيخ . . الربع . . الخامس . .

ضحك سلامه بخفوت وسكت مباشرة .

— تحية . . وسلام كريم . . مبارك . . نعزيكم يا أخى . . جميع الأهل . . عزاء المتأسف . . المكلوم . . فقد توفى . . أمبارح . . فى بلدنا . . ولارد للمقدور . . من أمره . . لنا ولكم إلاالصبر . . والتسليم . . مات يا أخى . . لإرادته . . إبنكم . . المأسوف عليه . ليكم إلا الرضى والقبول . .

هذه المرة ضحك وكيل الأمباشى بخفه ولم يستطع أن يتحكم فيما

يدفعه فوضع وجهه وراء إنثناء ركبته ولم نر عندها ماذا ألم به .

ـ نخبركم أخي . . قد توفى . . إبنكم المرحوم . . فلقه . . توفو سوا . . مع . . إبننا حاجي ود مختار الخفير . . والبوليس ياأخي شايف . . فى أمر الوفاه . . فنرجو منكم . . إن يجى لينا واحد من أهل المرحوم . . فى عربية إبنكم . . الفاتح . . غداً . . . ضروری . . لأنو بعد بكره . . البوليس بفتش . . بيت المرحوم ويدللو العده . . لو ماجا أهلو . . نخبركم أخي . . ضرورى جداً لأنو البوليس . . منتظر . . حار شديد . .

رفع رأسه متفكراً لحظات وحرك الورقة إلى المساحة التى تبقت .

ـ أخى المفضال . . لنا ولكم إلا الصبر . . والسلوان . . يدخل بفضله . . المرحومين . . مدخل صدق . . ويلهمنا وإياكم . . وجميع الأهل . . التقوى . . وحسن المقام . .

مد يده بالجواب إلى مختار ثم إحتسى الشاى فى جرعتين مراقباً مختار وهو يمضى إسمه أسفل الورقة حيث أشار له سلامه ، ووكيل الأمباشى يعصر وجهه وراء ركبته ويهتز ظهره المقوس إهتزازت خاطفة متوالية . جالت عينا مختار خلف الراكوبة ورجعت إلىّ قابعاً تحتهم ثم مد بها يده أمامى .

ـ ود عمر ود المصطفى ؟ أمشو مع ود حمد ودو الجواب دا تدو للفاتح . فى أيدو . . قولو ليهو الليله دا يوصلو وقت مايدخل المدينه . . يدى لشيخ الربع الخامس فى إيدو . . قولو ليهو فوقو قال ليك أمر الوفاه . . قولو ليهو دايرين منو رد . . عشان دا بسراع يدى الليله دا ليهم ويجيب لينا خبرو . . قولو ليهو كلامى دا . .

أوقفنى سلامه ضاغطاً كتفى مقترباً منى .

— قولو للفاتح سلامه رسلنا بجواب مختار دا بقول ليك توصلو أول ماتوصل لى شيخ الربع تقول ليهو أمباشى سلامه بقول مهم خالص يلقى ليهو أهل فلقه ديل يوريهم بوفاتو يجو للإجراءات . . وإن ماجاني واحد لحد بعد بكره فى العربيه يقول ليهم الأمباشى قال حيدلل عفشو البلقاهو فى السوق . .

تركنا أنا وحامد لأحمد مختار وزين الدين نار الشاى وتتابعنا بين القائمين القاعدين ، مختار والفكى محمود إنصرفا من سلامه ورجليه إلى القطية ثم وقع بصرنا على العنقريبين إلى اليسار وهبط قلبانا على السواء فتخبطنا طريقنا إلى إنفتاح البوابة واصطدمنا فيها بوجه الشمس ، تقيد إندفاعنا لوهلة يتشرب الهبوط بداخلنا فيضاً من الوهج والحرارة . وقعهما المخدر يملأ صدرينا ووجهينا متوسطين الطريق منطلقين على عجل ، فارين من إزدياد التحرك فى الدار ورائنا ، يموج فينا معاً رؤيا مايتم تجهيزه هذه الآونه ، واقفين حولهما فى بياضهما متنكسين بأبصارهم إلى التتابع المتّرادم فى إنتظام قراءات الفكى محمود فوقهما . وينطمس لوقوفهم منصتاً نحيب النسوان ، نكاد نسمع أنا وحامد على البعد فى إنحداره نتوء حوافى التأهب للصراخات المدوية عندما يرفعونهما على الأكتاف . أشجار الخلاء وفضاء البلدة وجبال الشرق تهمهم سوياً حية بالصراخات وأنا وحامد عند إستدارة العالى يقذف بنا تسرعنا دفعات جلى إلى السفل المتلبد خلف المنحدر .

السائق الشاب إستند جانباً مرتكزاً إلى مقدمة العربة مكشراً يرد على من يقتربون منه بمزاج متعكر ومساعده يدور فى منتصف صندوقها يرمى بتوجيهات ثائرة إلى المتسلقين والجالسين فى ظلها الممدود ، يرفعون إليه نظرات قلقة . ضرب حامد على يدى وأشار إلى منحدر التل الجنوبي وإلتفت فرأيت الطبيب قادماً متعجلاً ينثر التّراب ظاهراً على جانبيه ، يتخاطف ساقيه فى السراويل الزرقاء الرقيقة ، كأنه سيرفع يده إلى العربة لينتظروه . لم نحاول أن نزيد خطانا فأدركنا فى الطريق وفى عجلته لم يرنا مكباً على غبار

الطينة مرفوع الرأس إليهم . كإنما وقعت كلمات مختار وسلامه فى أذني فضربت على يد حامد وأسرعنا فى أثره . وصلنا والركاب قد هدأوا على ظهرها والمساعد يدور حولها يصب الماء ويفتش فى بطنها ، وسائقها لم يبدل إستناده حتى وفد عليه الطبيب وجئنا من ورائه فوقفنا صامتين . مد إليه يديه الأثنتين بزجاجتين مربعتين صغيرتين محمرتين بمادة داكنة متجمدة فى قعريهما . مسكهما الفاتح بمزاج ميت ونظر إليه. ثم وثب قلبى وتوغل فى حلقى كل شيىء . أخرج ظرفاً مده إليه فأمسكه معهما ، لم يحول نظراته عن وجهه . قال له .

— إتأكد من السدادات كويس . . ماتعرضو للهوا وماتخلى حته منو تلمسك ولاينفتح يقع كلو فى الواطا . . شايفو جامد ؟ القزازتين مكتوب عليهم أساميهم . . مع الجواب تسلمهم للحكيمباشى بكره الساعه تسعه فى مكتبو . . ترجع ليهم الساعه واحده زى مامكتوب ليهم بدوك الجواب لى . . أو أى حاجه معاهو . . حطهم بالطول كدا فى محله كويسه أحرص عايهم شديد. . لو . .

— خلاص ! . خلاص ! . ماتجنتوني ! . هما فى القزاز غالين ولاالهناك ميتين سته ساعات مجدوعين فوق القش . دمهم دا ذاتو ماساح وإتجمد مالك ماقلت ماتخلو يتعرض للهوا ومايقع وأحفظو كويس ؟ . ماخلاص دم بس جامد ولاناشف . ! يكشفو على ! يموعو ! . يكشحو . !

سكت بإنتباه الركاب إليه ونظر إلى الطبيب الثابت قدامه لاتتغير صرامة تعبيراته إلا رفة من إنزعاج مهنى مترفع فى تمسكه على السلطة والواجب، نادى على مساعده فأعطاهن له ووضع الظرف فى جيبه .

— ختهم فى الدرج . . بجيب ليك ياخوى ردهم ماتخاف . .

قال له الطبيب .

— سلم لى عليهم . .

إعتدل السائق ودار عنا ففتح المقدمة ودخل وضرب بابها . قبل أن يدخل يده عند أدوامّها كنت تحته رافعاً إليه يدى بالظرف مرتعباً أن يشخر المحرك فجأة وتزحف العربة ولن أجد سبيلاً إليه .

— سلامه قال تودى ! . ضرورى قال —

— آه ؟ ! .

— سلامه قال الجواب دا .. تدى لشيخ الربع الخامس .. قال تودى — قبض عنى الظرف وقرأ فى العنوان ثم نظر إلىّ .

— سلامه مالو يا إنت ؟ .

— سلامه أداني قال . . قال تقول لشيخ الربع الخامس . . يجو قال أهل فلقه معاك . . قال ضرورى تودى —

— أهل فلقه ؟ !

— آى . . قال هو بفتش بعد بكره بيتو وراكوبتو . . قال بدلل عدتو فى السوق —

رفع الجواب أمامه وقرأ ظهره ثانية ووضعه فى جيبه ولم يلتفت إلى وجهى المرفوع إليه وفمى الفاتح بمالم أذكره له من وصايا سلامه ، ثم شخرت العربة وجرني عنها حامد . زحفت وجرت دائرة إلى اليسار حتى واجهت الشارع المديد ورفع لنا الركاب أيديهم وجوههم مستبشرة مبتعدين وصغرت وخلفت غباراً كثيراً ثم إنتظم هديرها حتى إختفت وأرتفع من خلف التل البعيد شريط رقيق متراجع .

الشمس تدلت إلى الغرب وتداخلت على إنبساط الطينه وأسفل العالى بقع النور والظلال ، وجاء من الغـــرب عابرين تعريجة الوادى المخضر جماعات من الراكبين القادمين من الوديان ، صاعدين فى ذات الوقت مع

الذين وردوا للماء عصراً . أتي معهم أثنان من صبية الحي الشرقي يتضاحكان ويتمايلان (مثلما يكونان دون قصد) بزهو العودة في الشعور بثقل كيسيهما الممتلئين شيئاً وفيراً يتدلى من كتفيهما يمضغان لذاذته مختلطة بكلامهما وتضاحكهما . أتذكر ماظلوا يقولونه من أن حامد سيدخلنا معاً يوماً موقفاً سيتكلم به الناس . في حيرتي لما يجمع الولدين مثل ذلك تيقظت له قد وقف أمامهما يقول شيئاً لايعجبني مظهر قوله لأكبرهما . هرولت إليهم فسمعته ورأيته يحدجه في عينيه .

— آآي يوم داك . . آآي . . إنت قايل أنا مابلقاك براك ؟ .

— أني ماضحكت فوقك . .

— متضحك تاني كلو فوقي . . يوم داك زي الزول السواى . !

جذبته من يده فقبض على كيس الولد وإنتزعه منه بتراجع الآخر ووجدتنا نقف مسافة منهم . رأيت الإستغراب في أعينهما في اللمحة التالية يتحول حقداً وعيونهما تلمع فجأة بوخزة، ووقع في أذني عندها صوت الشتات . تلفت بقوة إليه فألجمني السخط والإستغراب أتابع الحبيبات الباقية تتساقط إلى الكوم والتناثر على الطينة السوداء كلما دفع حامد بالكيس المقلوب في نفضة أخرى. التوقع المخيف يتجسم لي بالصبي يندفع فيه وقد يندفع الى الآخر رامياً كيسه وبعدها لن أدرى بشيء إلا بعد أن أكون ممسوكاً عنهما بأيدي الرجال المارين قريباً منا . بكل قواي أوقعت عليه يدي وجررته مبتعداً به لايزال يحدج في الصبي .

— تاني كلو أضحك فوقي . . وكان سواي سوى لي حاجه داهو . !

أجره وأكرر صراخي فيه بلا وعي ، رامياً نظرات خاطفة إليهما لم يغيرا موقفهما هنالك أثملة .

— حامد . ! حامد . ! ياحاامد . ! ؟

لما تعبت أطلقته ووقفنا نلهث عند قعر العالى . أمسكت بيده ثانية وصعدنا على مهل تعبين . . عند القمة مرت صورة الكوم المدفوق والحبيبات المتساقطة فى رأسى وبقيت مدة فى فكرى تشغلنى عن سؤاله السبب عن الولدين . قال لى .

— يلاك ياعثمان نشيف منعم ياخى . .

هززت له رأسى بالإيجاب فى وسط إنشغالى وسرنا . خطرت الحبيبات المشتته فى بالى مرة أخرى فأمسكته متوقفاً وسألته .

— حامد ؟ جابو القرقدان دا من وين ؟ !

— من الوديان . .

— ياخى عليك الله يلاكم بكره نكوسو نجيبو . !

— كتير خلاص والله فى مسايل الجلابي كن شفت . .

— يلاكم كلنا نكوسو سوا بكره فى المسايل . . إنت تورى ناس زين الدين وأنا بورى ناس على . . بدرى قدام الطاحونه . . أنا من هنى دا ماشى نخيط لى قماش . .

— لكن قلنا حس ماشين لمنعم ؟ ! .

سمعت منعم الآن وتسرب موضوعه إلى تفكيرى، لكن إنشغالى بشأن الكيس والصباح لم يتوقف . سرنا بطريقنا الصباح مع أحمد فضيل وراء سالم مجدين مخترقين بالطرقات الواسعة ، مستأنسين إلى سكون الحركة فى الحيشان تحت إصفرار الأصيل البارد .

المسايل

أحاطهم عنى حامد ورجع بهم فى أخبار الأمس وأبقاني خارجاً عنهم يغلفنى شئ من البلبلة ، لايتحول سراعاً إلى إشتغال خاص عنهم فأنساهم مخاطين دوني ولاتتخلى حواسى عن التمسك بذلك الشعور المتنازع السخيف ، ولاعن الإنفتاح المتعطش الدائم لالآف المحسوسات المارقة على بالى منها المثير والملحوظ . تقبضوا أطرافه منذ البداية ، بمجرد ما إنفجر ضاحكاً فوق خمود تحركنا ، ولم ينتظر إستفسارهم متجهين إليه بأجمعهم ، ووضع فى أعلا صدغيه تلك الإنكماشة القصوى فإستنار بها جبينه كله وشهدوا هنالك تجسيداً أمثل للإنبساط فلم يملكوا الصبر على مايريدونه أن يسرع فيذكره فى مسامعهم المتفتحة . عرفتها منذ البداية ، ولم أعد النظر إليه ويظل تحفزى مشهوراً ، أرى تقبضهم من حواليه ولايزال يضحك ، وأحتار فى الحادثتين بأيهما يبدأ. ثم عرفت بالتى سيبدأ واحترت ثانية أيهم سيذكر أولاً ، مقصياً عن السبيل بتدافعهم عليه . رأيت القرقرة فى حلقه تتضاءل ومن بين المزيج الأول خرج منعم وخلصت روحى من الإنتظار وهبط تحفزى باليقين إلى قبول شامل . خارج نطاق الطريق أرى مسبقاً ، فى جو تقدم المسير ، مايصيخون السمع منتظرين لوقوعه منه إليهم ، وعلى عين التذكر الخفى تتقادم متسابقة مرئيات الأمس المنبعثة منجلية بالإقتراب نحو مهوى الإستنطاق حية من أخبار حامد إلى جو المسير .

— مشينا ليهم أمس العصر . . قلت لعثمان أنا مامشيت لبيت الحاج . . ياخى والله أنا ذاتي من شدة مابريد الجواد دا زى مابصدق قال فات خلاص . . قلت كدا لعثمان وأنحن ماشين على بيت ناس منعم . .

في عين التذكر إشتغل إحساسي وسبقت رؤياى أخباره فأصبح عثمان في كلماته وأصبحت كلماته كلماتي، ولم أعد أنا خارج مايحدث في الأمس فكأنما غبت عن الأوان وبقى مني عثمان وحده في أخبار حامد. لم نسمعهم عند البوابه وناديتا ثم قلت لعثمان ندخل ودخلنا إلى الفناء قرب القطية الخارجية وإنتظرنا أن يخرج علينا من الحوش الداخلي من نسأله عنه. قلت لعثمان عن الهمس بالداخل ورفع رأسه على رقبته فاستضاء وجهه ببهر السماء وأدرت أذني عن الريح وبقينا بلا حراك نلتقط شذرات الهمس بالداخل. غمغم عثمان بشيىء عن الحاج وكان مباغتة هنالك الكلام كأنما يزيد مع تزايد المتكلمين غضب داخلي فيرتفع وسطهم شيىء كالإحتجاج بائساً ومنتحباً ثم يتكسر في آذاننا عدد من الصراخات الحادة متنازعة وسط علو الأصوات التي تطمسه، وعاد السكون في الحوش الداخلي. أنظر إلى عثمان فينظر جانباً عني وأريده أن يبادلني النظر لأرى في عينيه تحيرى، وجلس بظهره إلى وقفتي حتى سمعنا الأصوات مرة ثانية. كانت الصرخات ثلاثاً ومتقاربة وبقى في خيالي صوت الجرس أين ضرب ومتى ضرب وعدت أنظر إلى عثمان. ثم عرفت ماكان يقوله عن الحاج، يبين صوته مفرداً مرفوعاً بنغمة هائجة ولم يظهر في الداخل كله من بعده صوت، وانقطع ذلك. نظرت إلى عثمان ونظر إليّ وسمعنا وقع الخطوات فإلتفتنا معاً عندما خرجت علينا حنونه مهمومة في إنتكاسها على خطواتها غير متعجلة وفوجئت بنا عند وقوف عثمان فثبتت مكانها صامتة تجيل فينا نظرة قلقة متوزعة. فتحت فمي لأسألها وإلتفت بالصمت على قول عثمان.

— مابكوركو الناس للجواد ياحنونه.. جوادكم بتلقى!.

نظرت إليه حنونه وتوسعت عيناها ولم يمهلها عثمان حتى تتفهم معنى كلامه.

— الناس ديل كلهم زي جوادهم جوادكم دا!. إنتي ماتكوركي كلهم بلقو ويجيبو ليكم..

لم أحول عيني عنه ولم أعرف له شيئاً، وعادت حنونه ترفع إليه عينيها المتوسعتين كأنها تنتفض بشيء يجعلها تنظر إلى الأرض، وحسبت إنها على وشك أن تبكي وأنه يقول لها : أبكي ، ثم رفعت إليه عينيها صافيتين ورجع يقول :

– كلنا نريدو . . كن تكوركي ليهو دا مازي مات ؟ ! تشوفي ساكت كن ودو وين داك الناس كلهم ديل برجعو ليكم تاني لحوشكم دا ذاتو . .

قالت له حنونه من تحت رمشها المتمحن .

– مابكورك . .

يردد لها محملقاً فيها بشيء غريب مضحك .

– آآي حسابك ماتكوركي . . لا لا ماتكوركي ! .

ظننت أنهما لن يضيفا شيئاً ، واقفين في ذلك الوضع الغريب المضحك ففتحت فمي لأسألها وأقفلته ملتفتاً به عليها . رفعت رأسها فجأة إليه .

– منعم جوه مع ناس يابا بعيط من الضهر . .

لم نقل كلمة ولابد أنها رأت مافينا من تعجب ومافي أعيننا من تساؤل فاستمرت في صوتها الهادئ ، لايزال يشوبه من كلام عثمان فيما أحسب أثر من تمحن .

– لقا الجرس قبيل . . فاتو مع يمه الضهر لراكوبة فارس قالت دايره تنضفو . . قلنا ليها مبرجع بوسخو تاني . . قالت لينا « ياعيالي ماتغشو رقبتكم . . جواد زي داك كن فات تاني ولايجي . . » بعدين . . . بعدين . . البيت كلو إتملى بكا . . منعم كان واقف قال ليها « يابا بقول كن بفتشو في آخر الوطا برجعو بجيبو . . » قالت ليهو يمه . . « الله يكون في عونكم وأبوكم والبقولو برجعو

ليكم ديل . . يلاك نقشو ليهو راكوبتو . . يجينا جديد ويلقانا جداد » . . مع يمه فاتو هو بحفر وبقلب فى التبن وهى تقش . . قاعدين بقشو لمن فى طرف الحوش لقا الجرس مدفون . . شالو ووقف ساكت يمه قالت ليهو « مالك ؟ » قال ليها « جرس فارس» شافتو منو واقفين ساكت . . بعدين يمه قالت « هيى ياعيالى » وعنينا سالت . . بعدين منعم عينينو سالو . . يمه قالت ليهو« منعم؟ إنت كلو تبكى ؟ إنت كلو كن بكيت ليهو دا فضل ياتو بلا أبوك تاني . . أسكت . . كن إنت ذاتك تبكى دا أخيتك تسوى شنو ؟ » . . قاعد يشيف فى الجرس ويهزو لمن يمه لمت التبن كلو خلاها وجا جوه . . أنا شفت الجرس بهز فوقو . . بعدين . . بعدين . . البيت كلو بقى بكا . . يمه جات شافت لينا كمان عينينا سالت . . قالت « إنغشو ياعيالى . . هيبا ليكم » وقعدت . . منعم واقف بهز فى الجرس كدا قريب لأضانو وبشيف فى كلام يمه . . قام وعاط . . يمه قالت « حسبنا الله نستعوذ من الشيطان الرجيم » وكبستو . . الجرس ممسوك قووى فى إيدو وبعيط . يابا وأب عبد الرحيم جايين من السوق جرو لينا داخلين . . الإتنين بجرو فوقو وبهزو وبسدو خشمو . . الجرس مابمرق من إيدو وولا بسمع ليهم وتقول ولابشوفيهم . . يابا بضربو كفوف كتار وولابطلق الجرس . . بعدين أب عبد الرحيم مسك يابا . . كلمو بالراحه ولابسمع ليهم . . كن الجرس قال ترن دا بس بعيط لمن الايسدو ليهو خشمو . . وعنينو بعيدين . . حس ماسكنو ويابا قال يجيبو ليهو الكتاب .

من الداخل جاءنا صوت الحاج احمد مهتاجاً .

— وينو ياحنونه ؟

وعينا بأنفسنا ولم ينظر إلى عثمان وقت أن دخلت حنونه الى القطيه

وراءنا وخرجت بالكتاب الملفوف ورجعت إلى الحوش الداخلى . عصر عثمان رأسه بين يديه وجلس ، وجلست بقربه ، كأننا لن نستمع حتى إلى ماسيأتي من الداخل . سمعنا رنين الجرس مرة وإنقطعت إنطلاقة صرخة فى كوم من الهمهمة المكبوتة ولم يرفع عثمان رأسه كما فعلت وظللنا قعوداً على الإنتظار ، وبعد ذلك لم نسمع إلا كلماتهم قليلة هادئة . البهر الأحمر فى الفضاء كان سواداً عندما سمعنا حركة قدومهم ورفع عثمان رأسه فى ذات الوقت الذى جاء فيه عبد الرحيم بسوس محيطاً منعم تحت أبطه يتبعه الحاج أحمد عن كثب . رأونا أول ما إنعطفوا من الفاصل وإقتربوا منا فنهضنا متقاربين ورأيت البريق فى عينى منعم وهو يحول عينيه بيننا من وراء ثنيات جبة عبد الرحيم بسوس ، مبارياً به إلى مدخل القطية . وتنبهنا على مخاطبة الحاج وافداً علينا .

— هاى . . ياتم ؟ .

— أنا عثمان . . وحامد ود حمد . .

— هاى . . مرسلين ؟

— لا لا . . جايين من محل العربيه جينا نشيف لمنعم . .

— منعم . . آآى لمنعم . . يا أولادى منعم عمل لينا حس دا زى الصابو شيطان . . تعالو أقعدو معا . . إنشا الله ربنا يدى من ريدتكم دا ذاتو عقل زى الرجال . .

مكثنا معهم حتى عم الظلام ونعس منعم ومال راقداً على التراب . تحدث عبد الرحيم بسوس والحاج أحمد لكننا الثلاثة ظللنا ساكتين . شعر حاج أحمد بمنعم نائماً تحتنا وقام إلى القطية فأحضر فروة أفرشها وحمل إليها منعم وقمنا ، ثم تمنى لهم عثمان خير الصباح وخرجنا من البوابة . لم أتمالك نفسى عند طرف الشوك فضحكت وعندها إلتفت عثمان إلىّ وفى الظلام أكفهر وجهه ولم أستطع أن أتمالك نفسى وابتعدت عنه ثم شملنى خوف

طفيف من تباعده . قال :

— ماتضحك فوقى . ! أنا مازى الوليد داك . . ماتضحك فوقى . . !

— أنا مابضحك فوقك . .

— بس ماتضحك فوقى أنا قلت ليك . !

أدار إلىّ ظهره ومشى بجزاء الشوك ولف من الركن وتركنى واقفاً هناك محتاراً كل الحيرة ، وضحكت فى نفسى مستغرباً . تفجر التذكر فى رأسى صدى ، وتشتتت فى عينى الرؤيا ، ووجدت نفسى ، ثم كانت ملئ فراغ المسير إنشراخات الضحك والقرقرة ، وانتفت أخبار حامد وبقى لوحده فوران كلماتي المحبوسة ، يرمقوننى بأركان أعينهم ويمتلئْ الجو بتضاحكهم ثم لا أزعل ، فلما أنهكوا ما أثاره فيهم علىّ وأنتظروا فاترين بالضحك للحادث الآخر ، تراجع بي الغضب البارد إلى أخبارى الأمس وإنفردت غائباً عنهم محاطين دوني .

لن يفهم الغبى ولايعرف ولن يحاول التروى ليحرز ولو يسألنى عما هنالك مجرد أن يسألنى عما بي ويبدى إستعداداً لأن يسمع ويعى بدلاً من أن يفسخ أسنانه البيضاء اللعينة وتلمع عيناه بمعرفة لاهى بالمعرفة ولاهى بالأوهام، وتصبح بسمته اللعينة قرقرة فى حلقه السخيف وتسمع ضحكاته ويأتي يحكيها لهم بصخب ويضحكون معه كالبلهاء حتى تؤلمهم جوانبهم فيسكتون لاعن خيار. وأظننى كنت كمن يدفعه الغضب إلى فعل شيىء غريب غريب لا أدريه حتى وجدته قد سكت وصار جاداً فكإنما لم أرد أن أعود إلى الكلام فيجد هو ثانية شيئاً يجعله يفسخ أسنانه اللعينة فى وجهى فإستدرت عنه لافاً بركن الشوك ودرت حول بيت كلتومه وحول بيت عبد القادر وجئت إلى بابنا .

كتلة الشوك كانت هناك ، بنفسها ماتركتهم ولن يتركهم عمر قبل منتصف الليل . ذهبت إلى الراكوبة فتمددت على العنقريب وجاءني منعم

وحنونه والجواد . إجهاشاتها ضغطت فى صدرى ولم أتحرك ورأيت الجواد منساباً يغلب عليه البياض يكاد يشع نوراً، عرفه يتهبب مع الرياح وتمسك فيه حنونه عند كتفيه تنادى أمها أن تركب وتنادى على الحاج ، كأن الدكة بأجمعها تمد يديها والبلد بأكمله ، وتنادى عليهم أن يركبوه . يجمح واقفاً على خلفيتيه مطوحاً برأسه عالياً ويتردد فى الفضاء صهيله ثم يكون منعم الآن ماسكاً عند الكتفين وأرى الناس حولهما يحيطون بهما وتغطى عليهم أصداء الصهيل . فى دامس بطن الراكوبة تحركت عيناى متسعتين عميتين (ذهبوا جميعهم) وصوت كتلة الشوك تنزاح ويتحرك باب العيدان فنهضت قاعداً وصرت قوائم العنقريب تحتى ثم زاد وقع خطواتها إقتراباً .

– عثمان ؟ . قاعد فى الضلام ياوليدى إنت مانصيح ؟ .

– عثمان . ! عثمان . ! أجرو هاى عثمان طش . ! عثمان إنت ما نصيح ؟ ! .

وفدت خطوات جريهم خلال كثافة اللعوط ووقفت فى مكاني دارياً بهم قادمين من اليسار ، ومن بين عيدان الشجيرات ترائينا وعباس ونادى عليهم من خلفه .

– داهو ياهوى . . داهو عثمان ! .

إكتملوا عن يمينى وعن شمالى وربتوا على كتفى متضاحكين .

– داقش براك ماشي وين ؟ والله العظيم تروح . . دا القدامك دا مامسايل الجلابي ؟ تدورى الليله كلو يقولو فاتو كتلو واحد منهم وجو ولاشنو ؟ وكمان فاتو لمسايل زيدان وعارفنومايقولو ماعارفين القوقو . .

تتابع ضحكات حامد رقيقة خشنة هازئة .

– هوى . . خلو بيناتكم جووه . . والله العظيم كن مارجع الليله دا ستنا تندمكم . .

إنفجرنا كلنا ضاحكين ونفضت منهم يدى وقبضت حامد من أصابعه وسرنا. تكلموا الآن عن الولد صاحب القرقدان وإنفجرت أنا أضحك وقلت لهم كيف بدا وجهه مكشراً وهو يرى قرقدانه مشتتاً على الطين إلى حد أنه لم يستطع أبداً أن يحرك قدميه خطوة واحدة ليبدأ لمه . من قمة العالى أراه راكزاً في مكانه والآخر يلتقط له جالساً عن بعد منه .

عبر كثافة اللعوط غزرت الأشجار وتسرب إلينا إحساس المسايل فتصلب سكوتنا واتحد إبصارنا هنالك عند حافة السواد ، نرى ضوء الشمس يتهرب عند الحوافى كأنه يرتد متكسراً على إنقفال المكان . أمامنا من فروع اللالوب العالية طارت قمرية وأطالت الصعود ضاربة جناحيها فى صفقة عالية قبل أن تنعطف منسابة إلى الطرف البعيد من سامق الفروع وتختفى ويعود الى المكان السكون . إخترقنا كثافة اللعوط بصعوبة وتعلق فيها زين الدين وتعطل سيرنا ولما حاوله عباس تعلق بنفسه وعندها أصر عليهما حامد أن يتعريا من الجبتين وزحفنا أسفل اللعوط حتى أخرجناهما . تتابعنا بحذر أكبر بين غزارة الكتر وتأخرنا قليلا لكن حامد ظل متأكداً من المسالك فما أن أصابنى شيئ من الشك طفيف وبدأ تخبطى على مركون الحماس الذى كان بالأمس حتى مرق حامد وأتيت من بعده وأتبعوني وتوقفنا معتدلين نعصر ظهورنا رافعين أعيننا تحت تشابك فروع اللالوب العاليه مستروحين .

تحت إحاطة التظليل تسابقت نظراتنا بين فجوات السيقان الضخمة كأننا نبحث بينها عن شيئ بالذات ، ومشى زين الدين فتعدى عدد منها وإختفى وإنتظرنا عارفين به هنالك متنبهين إليه وفعلها أخيراً فوصلنا منه الحوار واضحة به نبرات صوته . وإنتظرنا متوقعين منه الشيئ الآخر وحده ، فكأنما جرى صوته بقلوب صلابة السيقان ووفد إلينا مفخماً صادقاً فى بطئه المتناهى .

— أمرقوو . . ترآا . . هاآاى . . من زرآيبى . . أنا ترآحيى ولا أمنمووت . .

ضحكنا له وارتفع ضحكنا فى كتل السيقان وانتشر فقام بيناً وضحك لنا وأجال حامد النظر حواليه مرتين أو ثلاثة ثم نادى عليه .

— الوقت فات ياخي . . يلا نتقسم . . على وشين سوا . . زين الدين إنت مع عباس . . وأنا وعثمان . . ماتجرو رآسكم بدوش ساكت وتطشو . . أصلو الإتنن ماتنفرقو . . أنحن على الحجار ناس زين الدين قريب هنى فى أول الترس . . وإنتو فى الصدر على الشحيط . . كن ماعرفتو إنتو وين أقيفو ساكت محل واحد ونادو علينا . .

إستمعوا إليه بإهتمام كامل وأعجبنى تقسيمه لهم ثم كان فى بالى أمر النهار .

— تلاقو هنى كن إتمليتو قرقدان . . يمين الطولو كتير نمشى نخليهم .

تعدينا ربكة اللالوبات الشمالية ووقعت علينا شعاعات منسرقة من بين أغصانها المتمددة فى العلا تكسى الإتساع كله فوق علامات إنحناء الترس ، قطعناه فى عدد من الخطوات وواجهتنا مصاعد السيالات الحجرية وارتبكت أعيننا غير مقررة عند إنحدارات تشعيباتها اللامحدودة . أشار حامد إلى منعطف ، وتسابقنا إلى الشجيرة وبقربها إنهمكت أنا أفتش على فتحة الكيس بين طيات جبتى وحامد يجز فى التكويمات البنية من لسان الفروع ويحشى وراء أبطه . أردت أن أصرخ ووجدت الفتحة ثم لم تكن فى الشجيرة عندما طردته عنها تكويمة بنية واحدة ، ودفنت رأسى بين الأغصان باحثاً فامتلأ أنفى منها بالشذى العسول وكدت أصرخ . خلف لفة السيالة كان يجز بانهماك وجريت عليه وتمازجت أيدينا وقويت يداى عليه ، أخذت ما أبقاه وجرى منى باتجاه السيالة الثالثه ولم يسبقنى فاتحدت فينا منها لهفة اللعبة وإتقانها ، إلى اليسار منا نسمع بالأذن الثانية تسابق على وشين :

— هاى . . شيف أنا لميت قدريش ؟ .

ــ حسبنا الله ياهوى . . شيف شدرتي دا مليان كيف . .

في السيالة الخامسة ملأ حامد كفيه بالتربيعات البنية ومدها أمام عيني ، مستندين داخل إخضرار شجيرة أوقعنا أغصانها حتى الأرض في الصراع المتخاطف . فركها وذر فيها نافخاً وتطاير الحشف في وجهي وأراني الحبيبات الحمراء .

ــ دا كلو . . شيف ! .

ماج فمه في وجهي بالمضغ وملت على الشجيرة أنطط بالصراخ له وفي عينيه إرتفع الضحك وظل وجهه مشوهاً بإيقاع المضغ وتألم جانبي منه ولم يتوقف ولم أملك نفسي فاتكأت على كتفه ، يصوت مضغه في سمعي وينشف في حلقي فناء الضحك . أولاً سمعنا رديم الجرى وإختفى في آن واحد مضغه وضحكه ، ثم سمعنا التنادى .

ــ حامد ؟ ! حامد ؟ ! عثمان ؟ !

ــ آى . . آى هوى . !

تجدد رديم الجرى وإقترب فتركنا منتصف السيالة وتسابقنا في الإنعطافات نحو منحدرها على علامات الترس الأسفل ومن اليسار إرتفع رديم الجرى الثالث ثم تملك عليّ الشك وإرتفع الرديم في رأسي وضرب بعدها قلبي بشده . عند إتساع إنحناءة الترس إلتقينا بهما وتوقفنا فلم نتبين سلامتهما حتى وصل الآخران . وقفنا هنالك نتنفس بقوة ، نستعجل الأربعة من نظراتهما المتراجفة الإفصاح عن الحاصل ، يجثم تجسيده بأعماقنا منذ البدايه توقعاً مستوراً لمعرفة كاملة بالمكنون الرهيب . شهدنا هبوط الإرتعاب التدريجي عن وجهيهما وأشار زين الدين بين السيقان البعيدة ، ترف كلماته ببقايا الإنزعاج والذعر .

ــ هناك . ! الشغل البجعر داك . ! جعر لينا وسط الشدر هناك . !

ــ متين ؟ .

– هسع . ! جعر لينا على باليمين ! . حسو كبير ! .

رمينا أنظارنا بين السيقان السوداء اللانهائية وسمعنا مكرراً خواره وكلامه البطيئ خلف الجزع هناك ، فكإنما نزل وسطنا الهم العصيب ، وإنبعث بداخلى الشك الأول فصار خوفاً أراه فى كل وجه أحدق فيه . فى الصمت إصطكت أسنان شين وأنزر أنفه بين عينيه المتباعدتين وأردت أن أقول لهم أن نخرج من المكان لكن حامد ظل ضاغطاً على تعبيراته قابضاً يده على كيسه ، وضحك بهدوء .

– ياخوافين ؟ ماقالو ليكم داك كلام زماآنك ؟ تلقا زول بس داير يخوفكم ويلاروحكم إنسل . . يمين بالله كن براى أمش أشوفو !

– حامد لا . !

إستدار إلى وجهى بتعبيره الهازئ وأشار عنيفاً من تحت السيقان .

– ياعثمان ياخى البقر قاعدين بجو هنى . ! بس زول أو بقره . . . يلاكم نلقا نوريكم حس دا . . أنا جيت من هناك مابرجع كن ما إنمليت فرقدان . . تجرو ماشين عشان يلاقيكم العصر يقول لناس الدكه ديل كلهم « هدو عيالكم يا أهلى بيض . . حسبنا الله من عيال كدى خوافين مثل ديل . . لا لا . . تاني لتقولو عندكم عيال دكور عيال رجال يا أهلى » . . زى دا . . تدسو راسكم بعدين وين ؟ .

لم أحول عينى عن إنفعاله وتقلب فى ذهنى الخوف والخوف من ذلك الذى يقوله وبقوا صامتين حتى تقدم ذاهباً ولازمته ثم أحاطونا متأخران عنا عباس وزين الدين . سرنا دائرين على عرجة الترس حتى تركنا كل إنبساط اللالوب على ظهرنا وإتسع جذر الترس وتمدد عند موضع الحفرة وتكثفت الخضرة وتشابكت نبتاً واحداً فلم نتبين إلا بياض الرمل حيث تتدفق خيران

السيالات إلى مجاري حفرة الترس . أمسك زين الدين بجبتي وإنفجر وعباس سوياً .

— أسمع . !

ووجدتني متأكداً من سماعي له ، وأمهلناه أن يصدر ثانية ، أشعر بتيقظ حامد للموضع ، تتحرك عيناه سريعتين فى إتجاهات ثلاث على ظهر راكم الإخضرار . كأن ذلك العنف رجع فيه فصرخ فى عباس .

— ياخي وصف لى . ! ماهو أنا ماشي قدامك خلى يشيلنى أنا . !

— أني أمنخاف . !

— وينو زين الدين ؟ .

وسمعناه مرة ثانية . هذه المرة بدا حامد كالذى عرف الإتجاه فلما أصخنا السمع له ولم يقع مكرراً إتبع أحد الحيران ومشى منحنياً بين الأغصان الشائكة وأتينا من بعده . المرة الثالثة كان الوقع أكثر وضوحاً وكثرت فى رأسي التساؤلات كيف بدا وحامد ثابت بذات التفكير وباغتتنا الرابعة ثم رأيت فى عينيى حامد ظل الإرتياب ولم يخطو أخرى على إبتعاد السيالة فطال بنا تمهلنا عند المتكأ . إصطكت أسنان شين وقبع زين الدين وعباس مبتعدين وضغطت على نفسى قريباً من حامد متشجعاً أحاول أن أفكر كيف يبدو فى تذكرى وبالوعى الآخر أفتح أذني معاً على وقوعه فى المرة الخامسة . . وأظن أن الحر أصاب جبهتى عندما وقع فى المرة الأخيرة . خلت أن أعضائي إرتجفت فأمسكت على نفسي وإقترب مني حامد متحاملاً فيما أرى منه وأحسب . قلت له هامساً .

— حامد ؟ دا ولا زول ياخي ولابقره !

لم يرد على وبقى محولاً رأسه إلى ظهر الأخضرار متفكراً ، ثم جاءتنى الفكرة الأخرى فإندفعت بها عليه .

— ياخي أسمع لى . . يمكن يبقا نمر ياخي ! . أيام . . متذكر ؟ كان جا واحد ماشي بالوديان قالو ؟ قالو قتل غنم ناس الحلال الفوق ؟ آخر يكون جا مقيل ياخي تودينا وبعدين ؟ .

هذه المرة حدق فيّ بعينين مسحوبتين ، ورأيت الشك يقترب متضحاً على إستمساك تعبيره الأول ويذوب عناده فى شيئ كالخوف ، يحيل نظراته المتجردة فى الآخرين فلايسمع إصطكاك الأسنان ، كأن به لايجد منهم مايحركه فى أية جهة . أقول له .

— حامد يلانرجع ياخي . . يبق صحي شغل واحد . . ويقولو وديتو عيال ناس وشنو وشنو . .

خطا راجعاً وقطعنا المسافة من بطن الإخضرار إلى الحفرة فى أقل الوقت ثم درنا يميناً عكس منحدر الترس ودلفنا وسط الكتر وجوهنا إلى الجنوب متتابعين على المسالك التى يجدها حامد . تمزقت جبيهم فتركوا منها قطعاً صغيرة على قوابض الكتر واللعوط ولم نتأخر ، مبتعدين عن الكثافة وسط السواد ، متوزعين بالتعجال على تباعد الطنضب وعين منا دائمة على غبشة البلدة القابعة بعيداً عند قمة العالى .

ألم بي فيض من الرعب القديم ، ذلك النوع الذى يلم بي بعد أن يبتعد الخطر ثم لايتصبر على النتاج ولايعود إلى الفعل ذاته ويتشبث على فراغ الوقت الأوسط يحرق قلبى رجفة واحدة أليمة على ما أنا فيه مما كان قد يأتي عليّ وعليهم كلهم هنالك فى الدكه من الحادث الذى كنت السبب فى إيجاده وإثارته . سكتوا تماماً متخاطفين السير منحنين متباعدين وفى سمعى تتمازج مجتمعة الأقوال من وراء جذع الشجرة والصوت الآخر داخل الإخضرار ووقع التجارى ثم يسود المكان علينا عند نهاية الترس ويظلم ولايبقى لى بعد الإنتفاضة المرتعبة شعور بما كنا فى أنفسنا ، والمسايل لم تعد المسايل التى جئناها .

كأن بها قد إمتلأت بالصخب والكلام وتقشرت ترساً عميقاً جديداً والحفرة غاصت حيث لم تقف لالوبة صغيرة واحدة ، ثم كانوا هنالك يتجولون ويجرون الشوك ويكبر الصوت الثخين فوق تجوالهم ، كإنما يدور حواليهم ، ويستمرون على ذلك . تمضى المياه وتنشف الوديان ويتجولون عند الإنبساط المزروب فى أيديهم ألاتهم تلك الغريبة ، ويأتي على الإنبساط النبت الأخضر متناسق الخطوط ، ثم لايزولون من هناك أبداً ، يسمعون وحدهم كلامهم فى الليالى الدامسة ، وترى الدكه نارهم صغيرة مثل نيران المسافرين على المرتفعات وراء الوديان . يسمع المسافرون صوته الثخين من داخل الكثافة يأمر فيهم بشأن النبات . يجف الجو وينزل البرد وتبدأ حمير الدكه تذهب عندهم على ظهورها منسوج عيدان وقشرات اللعوط وتعود حاملة مردوم البياض صاعدة به فى إتجاه منازله . الجفاف يأتي والجفاف ينتهى وتموج الكثافة بتجوالهم ويسمع المسافرون نداءات أوامره ويرون كسار السيقان الرقيقة تنقل بعيداً وتردم ، سنة إثر سنة ينمو تعفنها وانطحانها بالمنطقة أكواماً من الكراهة الفاسدة . يوماً ، تنادوا بذلك الرجل فى قدير وظهروا هنالك عند مداخل الكثافة وبعدها إرتفع الصخب عند الإنبساط وعلى الأنحاء كلها وتتحاوم النسور نهاراً فى سماء المسايل وعلى وسع البلد ، ويجيئ المطر فلا يسمع المسافرون شيئاً فى الكثافة ، وينشف الأرض فلا يجدون صوته الآمر ثم يمر برد الشتاء ويعود الجفاف . الكثافة تزيد إخضراراً وهنالك على الإنبساط تربت اللالوبات وتشابكت ثم تحدثت الدكه عن الهمس الثخين عند المداخل وعن ذلك الموجود أبداً يتجول وحده فى أركان الكثافة التى شهدت مجده ، ولم يشأ أحد أن يحاول تكذيب مايصدقونه وتركوه لشأنه لايتغول عليه بها إلا السباع والبقر والمتعمد الشقى بحياته ذاتها . يقول جدى مصطفى أنهم قتلوا زيدان بلاحق وأن الرجل لم يتدخل فى شئونهم وإعتمد على عبيده وحدهم وكان الأولى بهم ألايعميهم الغضب فيحسبونه عدوهم أيضاً وهو الغريب الذى أولد بجهده وعبيده وحده فى

تلك الزرائب قطناً شهدت له البلاد كلها قاصيها ودانيها .

كأنما رهبته تنفح وجماً فى أطرافى وأتشاغل مجتهداً بالتخوف الآخر ، لو كان نمراً فحسب وسقناهم إليه . قطعنا إتساع الوديان واقتربنا من تعريجة الوادى وتعبت أعضاؤهم فتباطؤا السير ولم يتبق فيهم من خوف يذكر . قال زين الدين .

— والله تاني أني مابمشى للمسايل كن بموت . .

ألقوا إليه نظرات سريعة وهبطنا إلى مجرى الوادى اليابس متعدين فلما أصبحنا على المنحنى الطينى على البلدة لمح فى بالى موضوع أهم فناديتهم متوقفين .

— أسمعو . . مافى زول يمشى يقول لقينا ولقينا . . أنحن مشينا جبنا قرقدان . . بس . .

هزوا رؤوسهم وزاولنا السير فلما أوشكنا على المجيىء إلى قمر العالى تحرك وجه حامد وأعمل لسانه فى شدقيه وتف حبيبات القرقدان الصفراء المبيضة ، وأعمل لسانه وتف أخريات ثم أعمل لسانه فى الشدق الآخر ووقف يتف الحبيبات قطعة إثر أخرى وأنا أنظر إليه ويتحرك جوفى نحو شيئ لا أدرى ماذا ، فلما أعمل لسانه ولم يجد شيئاً وتف ورفع إلى عينيه بلبغ مابداخلى حيوية الهزل وأوقعت يدى على كتفه وتماسكنا منططين بالضحك من وسط تدافع الضحك فى صدرى وجوانبى أصرخ فيه .

— وآآ . ! كلو دا كان قاعــد وين ياصبى ؟ . آآها ؟ . يالفارس إنت ؟ دا الفاآرس ذاآتو ؟ .

البلدة

في قطيتها يوجد ركن كنت أعرف أنها لاتعرف كل مايوجد فيه . علقته بين بطني والجبة وأعطيتها ظهري ، راقدة معتمدة برأسها على يديها يغطي عني عينيها طرف الثوب . تكورت بكتفي على الذي عند بطني وتعجلت الدخول عنها . حشرته في أبعد موضع عن أيديهم ، زحفت بين القصب والعدة ولم ألامس تنظيمها متحاشياً إحداث أقل حركة ، ونفضت عني غبار القصب والتراب بحذر ومسحت الأرض حيث زحفت وهدأ بي الخاطر فلم أفكر كم من الوقت إستغرقت داخل قطيتها . وعندما وقفت في ظل راكوبتها أنظر إلى رقدتها محاولاً أن أحدد ماذا أفعل بعدها ، فاتني أن أدقق فيها فأجد ما إذا كانت راقدة فحسب أم أنها كانت حقاً غافية . باغتتني بضحكتها تلك اللينة المتوزعة على التتابع الطريف وتطوح جوفي ثم إستقر ، واندفق ضحكها في صدري فأصبح الأثنان معاً خوفها والتوله بها ، وإجتاح روحي منها ذلك الفيض النادر المتماسك من الإنشراح . أطرب بالإنبساط للسخرية في نبراتها .

— خلاص دميتي قال زول كدى تاني ولايشيفي ؟

— آآي ! .

— البخيل العوير . . وأني نلقا دي تسوى كيف ؟

— مابتلقا والله ! .

— مايحلف . ! قدام أبوك خلي يجي . . كن ولا لقيتا محل دميتي دا ولايبقى بيتي تاني دي . .

— وين ؟ .

ـ يالعوير . . لا لا . . خلى ابوك يجى . . نقوم قدامو نلقا ليك ! .
نورى ببخلك . .

ـ عليك الله بس وين ؟ عليك أبوك ؟

ـ دميتي ورا هناك . . بين القصب والعده . . قايل أني نايم ؟ أني عميان ولا أطرش ليك . . خلى العيال يجو بس يابخيل . .

ـ لايمه . ! والله كن أديتي لزول منو . ! كلو أديتيهم ما فضلو شغل حس دا . . أنا خاتي والله لجدى ! . بسألاني طوالى كن فتنا . .

ـ جدك كمان زى المانصيح . . كن لقا قرقدان دا زى روحو ينسل .

على طرف الحوش إستمعنا إلى وقع الخطوات حتى أعقبت بابنا ، وغطت عنى رأسها ، لن يأتي عمر منهم لوقت ما فى العصرية ولن تفعل شيئاً غير رقادها وتغطيها . عيال الجيران سيأتون وقد يسألوننى بإلهاف وستدلهم صاحية من رقادها وتغطيها ، تؤلبهم على الإلحاح علىّ ، كأنها لم تقتنع بما كنت أقوله لها أو كأن جدى لايهمها هواه فى شيىء أكثر من العيال . مشيت عنها ولم أدخل ثانية إلى الراكوبة ووقفت خلف الفاصل ، حذراً منهم يملأ ون على تفكيرى ، ومشيت ثانية . من ورائي رفعت قولها بالنبرة الجادة .

ـ ماشى وين ؟

ـ ماماشى محل كدا . .

أمام الباب نظرت يميناً وشمالاً ، جلست عند الظل قليلاً وقمت . قطعت الطريق إلى الناحية الأخرى والتصقت بشوك ظهر بيت كلثومه ثم بشوك ظهر بيت أم عجب وإنتقلت من طريق الى طريق متحاوماً ، طالت بي الطرقات ومرقت على عرى حافة السوق . أصابتنى الشمس فى عينى

ولم أجد المقصود من إتجاهى فتاهت بي مشياتي وتقلبت نظراتي هائمة ، فى ظل المقهى كانوا كوماً من الناس وفى الأرجاء الأخرى كانوا أثنين وثلاثة . أقول لنفسى كنت أذهب لحامد أو لزين الدين أو لمنعم ، سمعت أذناى الحس وتقلبت يقظاً على الإتجاهات ثم رأيت اليدين تدعواني من بطن المقهى محل النار . توجهت إليهم ومررت بقربهم غير مهتم لهم عارفاً بأحمد فضيل عند النار وفى أذني تقع رقاق كلمات عبد الرحيم بسوس من مكان ما فى وسطهم . إستدار أحمد فضيل باسماً ولز على بقدمه أفضل الصندوقين ولم يغادر النار ، يهبهب بنشاط أسفل حلة الشاى .

— تعال نسألاك يا أخينا . . فتو للزول فى محلوآ ؟

— ياتو ؟ .

— زيدان . . ترا خبركم كلو عرفنا . . ماتنكر لى وتخاف منى . .

أني ذاتو كن قاعد ساكت وقلبى زى قلبكم قال ليك ولاتمشى ؟
ترا شين جا هنى برجف وبرجف بسألو نهار هنى « مالك ؟ »
بقوم وبرجف . . بسألو وبزنقو على بوريهم قال « فتنا لمسايل الجلابي — » « هاها ؟ » . . « لقينا الشغل داك ! . جعر لينا ! . داير ياكلنا . ! »

— شين قال ؟ .

— على باليمين رجال . . مالقيتو ذاتو كلمكم ؟ ترا الناس الليله بمسكو فوقكم قووى إلا توروهم قال ليكم شنو . . كلامو للناس داك الوراكم وخلافكم تجو عشانو دا الاتقولو ليهم . .

غرف مـــن الحلة نصف كوز ووضعه لى على عجل وصب أربعة أخريات وذهب بها إليهم . لم ألمس الكوز وبقى فى رأسي شين شين حتى عاد وجر الصندوق الآخر قريباً منى وجلس قبالتى ضاحكاً لى فإبتسمت

له وثبت فيه إحساسى ولم يبق بعدها مايعوق عودتي إلى حرارة التعلق به .
قلت له .

– شين قال لمنو ؟ .

– صبرك بس شويه براهم بسألوك . حس دا بسوس شاغل بالهم بالجواد . . إلا فارس . . فارس . . جواد زيو قال ولابتلقى . . عين بنى آدم كدا شافا جواد تاني زيو ولا زى جدو مافى قال . . أمس داك كان مصموم والصبح بدرى قام هنى السقايين الغربا بشربو فى شايينا . . شبكهم بالجواد . . ناس الحلال مسكهم ليك النهار فى الجواد . . مأمون جاهو قبيل قعدو وراهو بالجواد . . وحس جاهو منصور وجابر والعسكرى وآهو لماهم وشوف ليك يالجواد . .

– مالو قال الجواد ؟ .

– أشرب شايك وقوم عليهم أسمع بقول ليهم شنو . . وحات أبوى تسمعا تقول جوادو هو . ! تقول بقول للناس ديل كلهم ترا الجواد جوادكم كلكم . ! تقول بقول ليهم هوى يناس ترا أسمعو كويس وأعرفو . ! داك جوادكم إنتو كن خليتو فات تاني ولالقيتو جواد زيو ترا . . أشرب شايك وقوم جنبهم بصندوقك أقعد أسمع ليهم . .

دون أن أعى وجدتنى أجتهد أن أتسمع من بعد بطن المقهى لما يقولونه ، لمدة وجدتنى أشك فى المتحدث أهو بسوس أم شيخ السوق . حديثهم الآن بقبقة فى الفم . كإنما لايوجد فى الفم مسلك للكلمات يمكن أن تهرب به من ثنايا إكتناز الشدقين ، أو كأنها لاتجد مفراً من التضارب فى إنطباق الشدقين على إنطلاقها . كأنها فى اللثتين متكسرة فلا تجتمع قولاً إلابتعود الآذان المصيخة على قبولها كساراً ولمها من متناثر البقبقة الشنيعة . جرعت

مابقى فى الكوز وحملت الصندوق ولم يلتفت علىّ أحد ، وضعته عند ظهر جابر ، مقبوضاً تماماً بحركة فم منصور فطال بذلك فيما أحسب تثاقلى على الإرتكاز إلى الصندوق وأشار علىّ رجل البوليس فرأيت إنزلاقى عنه وعدلت جلستى فى لمحة ، ثم عدت هناك .

— وحات المولى أمس داك ماصدقتا كلام زول كدا . ! النلقا كلو بقول لى « أمش العتمور شيف السوو فى جواد حاج احمد . ! أمش شيف بعنينك ! » . . قلت للجماعة فى السوق تقول الناس لقو كرعين الجواد زاتم مقطعين واقعين فى النقار البقولو دا . . أمس النهار كلو مع ناس مختار مانزلت للسقى . . بدرى فى الصبح مشيت للبقر . . مع طلعة الشمس ماشى راجع كدا طليت على النقار ووقفت كرعينى ماتو يازول ونفسى دا وقف قلت : «يامولاى القادر !» وكلامى تم . . يازول واقف لمن الزين جاني وجانا النور والشمس فوق حتى مشينا منو . . النقولو مالقينا . . الزين بقول ليهو « ياخوى ديل فى قلبهم فى شنو ؟ » بقول لى « ربنا يعرفى » . .

— حاجه كعبه ياشيخ منصور ؟ .

— ياعبد الرحيم ياخوى . . الناس مانصاح . . الزول النصيح مابسوى زى داك فى خلق الله . . أني أمندق راسى كدا بنشاف لى الجواد غلبهم بس يازول . . جربو يركبو فوقو وبعدين شال بيهم راسو ويلا المشى والجيه لمن غلبوهو . .

نفض عبد الرحيم بسوس رأسه بعنف وبرقت عيناه وهاج صدره وارتفعت يده متوعدة بالجدال كأنه سينهض واقفاً بين المستمعين حتى يسكت له منصور .

— يازول مازى داك . ! يامنصور السرقان دا سرقان عرفه . ! ياخوى

الناس قاصدين الجواد . . عانو ! . زى كلامى دا . . أسمع لى أنا أمنقول ليك . . إنت ماشفت من بيت الحاج الناس سوو شنو . . أسألاني أنا الحاضرو كل القصين نوريك خبرهم ذاتو يازول . .

لم يحول أحد منهم نظره عنه وفى عينيه لمعت متعة القبض عليهم وتأججت بأوداجه شهوة الكلام ، دون أقل تحرك فيه تبدل مرتكزاً مسترخياً على جلسته ولم تغادرهم عيناه ولم يتوقف فمه إلاعلى إنخفاضات حلاوة الحديث .

— يازول الناس عارفين البيت تمام . ! عارفين قدود الكلاب فى حوش حاج أحمد كلو واحد بس . . بورا . . مزرور بين شوكو وشوك كلتومه . . ليلة داك ضلام الأباليس مشو عديل فوقو . . زحفو من تحت الشوك وتحت للقصب دخلو بس فى راكوبة الجواد . . الناس تقول سوو سحر للبيت كلو ولازول بسمع ؟ . الجواد داك كن ضرب واحد يمرقو بفوق الحوش . . كن هز راسو ساكت وعاط فوقهم الحله كلو يصحو . . أنا أمنقول لناس الحاج الجواد دا عرف واحد منهم . . الناسين يازول واحد منهم دا مسلط صحى . . خشم الجواد ربطو بدلقان مارمو من خشمو إلا فى قعر الطينه . . الجواد صارعهم شويه كدا وملكو على.. الحاجز شلعو نص قصبو .. بس بقدام قطية الحاج مرقو والجواد بعيد نافر منهم . . بطن القدم الرقيق الما واصل الوطـا الأصابعينو طوال دا ماسكو شـديد يازول . . نفر منهـم بين دربين وراء بيت نور الدين منو إلا الدرب البراني . . الوطا كلو ملو جباد . . قربنا نفقد الدرب هناك الصبح كلنا غلبنا واقفين إلا عبد الرحمن مرقو لينا برا البيوت . . إتسـهل لينا مشينا تحت الشدر ونزلنا بيهم الطينه . . الجواد لساهو نافر منهم بعيد . . وقفو حبه كدا إتصارعو معا . . فكو منو تقول لى الدلقان مجدوع هناك . . القدم

الرقيقون دا ركب من هنا والجواد بنطط نافر وفاتو على العتمور .
داير زولك ياخوى يجربو بدرى فكاهو ليك بالعرض جبده كدا
وقبل بيهو . . داك الآخر كمان أخد بيهو مشوار بالعكس وقبل
بيهو . . هناك وقفو كتير قراب كن بشاورو وكن بغالطو
ويلا الإتنين إتردفو وشالو العتمور سكه . . ماشين وجايين الليل
دا كلو تقول أولاد الكلب راكبين جواد حديد . . ياجماعه
لو تصدقو أحمد فضيل دا مشي الرديس بالعرض تلاطاشر خطوه
كراعو مفرود للآخر . ! مقاس إيدو فى النقار حسب تحتو
خمسة وعشرين حافر . ! ود عمر ود المصطفى جرى وقف لينا
فى آخرو تقول مانشيف راسو ذاتو . . مشينا على الوليد حسبنا
ميتين سبعة وسبعين خطوه . . والله العظيم الماعرف حن فى بهيمه
فى حياتو مننا قلبو إنخلع أمس داك . ! الناسين يامنصور ياخوى
مش مانصاح . . الناس مجانين عديل كدى . !

فى العتمور إنحبس بسوس فكأنه لن يجد مهرباً من الذهاب والقدوم مع
الحوافر على شريط النقر الأسود ، فلا هو ينهك مايقوله فيتوقف ولا رضى
أن يخرج بالآثار إلى الآبار فيسلم روحى من التسابق أمامه إلى فقد الأثر بعد
سقيهما للجواد . كأننى أستحسبه أن يخبرهم وأعلم معهم أين ذهب بهما
أو ذهبا به من هناك . يقوم فجأة فى الخلف الباهت من رأسى وتنهض من
نقطة الشريط عند السراب حوافره ويرقى ويغلفه السراب وترتفع معه ومعهم
عيناى ويصعد ويتلاشى ولايضيع من متابعتى تضاؤلهم مهما توغلوا فى البعاد .
وعيت على صوت العسكرى .

— خساره والله . . أنا شفتو . . حصان ماهين أبداً ! .

— يانايب الوكيل ياخوى . . جواد حاج أحمد مأصل . . جدو فى
البلدان ديل كلهم معروف فى السماح . . ناس جابر الصغار ديل

هم الولا بعرفو هو جواد حاج أحمد دا ذاتو جابو من وين وسليل ياتو خيل . . كن وروك يانايب الوكيل بحكاية جدو تستغرب . . جد الوليد الجنبك دا بعرف خبرهم كلو ناس زمان . .

— بالله ؟

— جد الجواد دا كان جواد الشرتاى مريود . . وقت كان فى الدكه دى بمرق راكب فوقو النسوان من جوا الحيشان طالعين فووق بزغردو . ! وحات الإسم الجليل قالوا كن وقف كدا على عراقيبو ديل والشرتاى مريود قالو ركاباً . . رخى ضهرو على الأكفه الورانيه وطلقو . ! الجواد دا كن شال بيهو كدا ونط . ! راسو بنشاف من طرف البيوت لطرف البيوت . ! مع روسين القطيات تب معادل . ! كن داير خبرو أسال الكبار ديل بوروك يالنايب تتعجب . . يوم لاقو بيهو الزبير ود رحمه بقولر البلدان متكلمو بيهو يازول . !

— ياعبد الرحيم ؟ ناس الحاج ديل قرايب ناس العمده ؟

— آى . . من جهة أمهاتهم . . سلالة الجواد داك رباهم عبد الله ود الشرتاى مريود تلاته . . منهم فضل واحد بس . . عبد الله من هنى مشى لدار الصعيد جاب ليهو مهره سميحونه . . ولدت إتنين فلاو . . واحد باعو لأولاد جوجال . . والتاني لمن مات عبد الله خلا لمحمد وليدو . . محمد يازول ماراجل سيد عزم . . ولا أكلو ولاشربو ولانضفو . . حاج أحمد شافو كدا قال ليهو بيعى لى . . المطموس عمل ليك هو عراف وزول عزم وجد قال بصلح الفلو ؟ . . كم شهر كدا قرب الفلو يموت الناس دخلو بيناتهم . . أداهو حاج أحمد أتناشر جنيه وساق منو الفلو دخلو فى حوشو وقعد هو ذاتو بأكل فوقو وبمسح فوقو وبشربو

ترابس أمنول وقت قام ماشى الحج حتى جاب ليهو السايس دا . .

— غريبه والله . .

— كن شفتو لما ساقو منو . . فلو مدبر أبمخاريق . . هوان . ! تقول الزول البشيفو أمس دا مايصدق قال دا هو داك ذاتو . . كان يزول تعبان . . كن ماشى يجرجر ليك كرعينو وراسو برقبتو الطويل داك تحت فى الوطا . . يومين كدا يازول الجيران مابنومو من الحمحمه . . شاف كدا الحــاج رسل جابو ليهو سرج من الصعيد . . ترا إلاالسايس البخت فوقو السرج الميرى . . أصلو حاج أحمد بركبو بسرج أباكفيتين . . العشيه بمرقو بنشطو على الجبال وبرجعو . . هيا زول ! . سته سبعه شهور كدا الحاج إلابمسكو ليهو فى عيدان الباب حتى بركب فوقو . ! الوركين ديل بقو ظلتايتين . ! والصدر إنفتح ليك جبل . ! والرقبه إنعقبت وإنعقدت . ! ناس البيت قالو بسمو الأرقش حاج أحمد قام ليك فوقهم . . قال « إسمو فارس » ! . هو بذاتو جواد جدودو فراس الزمن . . جميع الناس ديل البشوفو كلو قالو « آاى والله. ! الصلاه على النبى . ! إسم وجسم ! » . .

وقع الظل القادم إلى يسارنا واستطال فى عدة تموجات بلغ بها رأسه إلى أشواك المنازل عبر الشارع ولم يميل وجهه عن محاذاة جلوسنا ثم تحركت الخطى على الرمال ولف رجل البوليس رأسه فتطامن فى وجهه إستغرابه وأصبح فى تعبيره ذلك السرور القطن، يهز لبسوس رأسه دون أن يعود إليه بوجهه عن جسم الظل القادم على عين الشمس النازلة . إقتربت الخطى فرفعوا إليه أعينهم وملأهم السرور ووجدته وكيل الأمباشى . توقف خلف رجل البوليس تماماً وألقى عليهم السلام رافعاً يده عليهم . إستند منصور فى قعاده على ظهره وأشار إلىّ .

– أهلاً يالوكيل . . أهلاً ياخوى . . قوم ياوليد للوكيل يتفضل . .

– لاتمش ياشيخ منصور . . خليك قاعد ياجنى . .

– إنشالله ياخوى بينتو حاجه ؟ خبر كم شنو ؟

– تقصد ناس أمس ياشيخ منصور ؟ والله . . والله . . لليله ماعندنا أنحن كلام إلاكان سلامه يمكن . . دايره صبر شويه يالشيخ . .

– الله يهونو لينا ياخوى . . إنشالله ربنا يساعدكم ! .

لوهلة ثبتت نظرات وكيل الأمباشى علىّ وتململت بجامع شعورى ولم أتحرك ، ثم كأنه قرر شيئاً ، إقترب منى ونهضت واقفاً متوزعاً بين الفكرتين أهو شيئ آخر أم أمد إليه إلصندوق وأبتسم له وأنسحب إلى عيدان المقهى . وضع يده على كتفى وإنحنى علىّ .

– عثمان . . أنا داير أسألك . . تمشى معانا شويه ؟

لم يزل يده عن كتفى ومشينا ، يتواكبان الخطى ، كأنها مقاسة معلمة سلفاً لأعينهما على الرمل ، وفى الأرض تجرى نظراتى بين أقدامهما وتعلو فى سيقانهما على الأشباط الثقيلة وعلى الأشرطة الزرقاء ويطرب إحساسى بملمس لمعان ردائه الكاكى على ذراعىّ . فاجأني بالكلام .

– قالو مشيتو لمسايل زيدان الجلابي ؟

أصابنى صمم وتبرجلت خطاى ولم أتأخر عن التماشى .

– وريني بالضبط كدا ياعثمان . . آ ؟ . الخلعكم كان شنو ؟

– شغل واحد جعر لينا ! .

– يعنى ماشفتو حاجه . . بس حاجه جعرفيكم ؟

– آى جعر . . . . !

– كدى أقيف !

جلس على أعقابه وأجلسنى وجلس رجل البوليس فى مواجهتنا . مسح الرمل بيننا وأدخل عوداً فى يدى وبعود آخر جر خطين متقاطعين رسم على أطرافهما حروف الإتجاهات كما يفعل الناظر وإرتبكت قليلاً ، كأنه سيكون الناظر وليس سلامه وسأغلط ولن يكون الناظر ليجلدني بل سلامه ليسجنني إذ ذهبنا إلى المسايل ووجدنا ، قال .

— كدى أرسم وين كتو . . الشغل دا جعر وين ؟

— هنى . . هنى فى الشحيط جعر لينا . . أني وحامد جينا من الحجار وعباس وزين الدين جرو لينا مع ناس على وشين فى الشدر . . بعدين حامد قال لينا إلانقطع الترس ندخل فى الشحيط نشوفو . . أنحن قلنا لا . . بعدين جعر . . وبعدين . . دخلنا شويه كدا ورجعنا للترس . . ورجعنا للحفره . . ورجعنا مارقين . .

— أيوآ ؟

— قالو زيدان فى . . . !

— كدى أقيف . . الشغل دا جعر ليكم كيف ؟

— حسو تخين . ! مازى التور . فوقو زى بوررر . . زى خانقنو ! أني قلت ليهم إلاكن نمر جا ماشى . . هم قالو زيدان القتلو وقاعد . . . !

— أقيف . ! أقيف . ! دا كان النهار آ ؟ إنت متأكد مازى التور ولا البقره ؟

— لا لا . ! زين الدين عملو بخشمو ورا الشدر قال زيدان . . !

— خلاص . ! خلاص . ! كفايه . .

وقفنا صامتين وحامت عينا وكيل الأمباشى بينما إنحنى فنظر الآخر على الرسم عند إقدامنا وبقيت أنا على التوزع والشك ، أنقل عينى بين الأحزمة

الزرقاء والكاكى اللامع والأزرار الصفراء ، لا أدرى ماذا أفعل قبل أن يأمرني بما أفعله ، شيئ من الطمأنينة نزل على توقعى فبرد إلى هدوء وأمان . كأنه يحدث رجل البوليس ولايحدثه بل يحدث نفسه ، همس من إرتفاع وجهه بخمول فيه ألم .

— أهل البلد دا بحيروني والله . ! أمس ماتو ليهم نفرين . . وواحدين يتلبدو هنا قريب فى الوديان دى بضبحو فى بهايمهم . . عاملين ميتين حيو . ! وهم ؟ . يومين كلامهم كلو فضل إلا الحصان . . الحصان . . يتلمو بس إتنين مايقولو إلا فى الحصان دا . . شهر تاني تلقاهم لامين يتكلمو بس فى الحصان ياهو . . خلاص ياعثمان شكراً ياخوى . .

أخبرت حامد بكل ذلك . عندما تركوني أعقبت عن شمال بيت العمدة ودخلت بين بيت مستوره وبيت زكريا ووقفت عند الشوك فناديت بخفوت ، مرتين ، مرة واحدة ، ومرات ثلاث . فكرت فى تكراره وخرج عاجلاً وجلسنا مكاننا وقد وقع ظل العالى بأجمعه على البلدة . قلت له عما فعله بنا شين ، وسبه حامد ، وحدثته بما سألنى إياها وكيل الأمباشى وماذا وجد منى تماماً . قلت له أن وكيل الأمباشى لم يردني أن أذكر زيدان أمامه ، قال حامد ربما كان يخافه هو كذلك ، وقلت له أبداً ، يبدو لى وكأنه يقصد شيئاً آخر عكس أهل البلدة . قصصت لحامد كل ماذكره بسوس عن الجواد وتوسعت للحكايه عيناه ولما خلصت تندم على عدم حضوره وأظنه حسدني ، ثم ذكّرته بالغد والتفتيش . كان قد نسى ، المغفل . أول الضحى نجتمع عند أحمد فضيل وسيأخذنا أحمد فضيل معه بينهم . نادت أمه أو أخته (لاأدرى أيهما) عليه وقام لها فجاء فى بالى عمر ولم أرتح بعدها فضربت على الشوك مرتين ، مرة واحدة ، وثلاث مرات ، وجريت فى ظلام العشاء المبكر بين ركام البيوت جنوباً .

أقول فى نفسى لو كانت حاضرة معى لما قالت لهما رأيها ولتركتهما يتساقطان لوحدهما بالتنازع الشخصى فى نفسيهما تلك الإحتمالات والتوقعات ويقلبان فيها صنوف البحث ويركزان فى أمره تقليبهما الدائب حتى يتغالطان أمامى ، ولو كانت هى حاضرة لما كان لها رأى فى كل ذلك . كأنما يكفيها أحد حالين ، فأما أظهرت إكتئاب الندامة وانصمت عليه ، أو رمت إليهما بلحظاتها تلك فى إستغراب مثلما تكون لم تهتم له قط بشئ يحركها أبعد مما فعلته له أول أمس . مع حوه والأخريات يبكين الميت الذى ضاع منهن ويرقد هو ميتاً معه فلا يدرين (منجبرات على أمرهن) بأية طريقة إذ أردن يستخلصن لميتهن وحده بكاءهن ودموعهن ولا يتزرف له هو منها قطرة من نحيب ، كأنه ليس ميتاً مثل ميتهن ، أو كما هو ليس بحى يرينه هذا الذى أمات لهن ميتهن ، لهن يرقد هناك متماوتاً أسفل حمايتهم له مجموع الرجال يتسمع من يباس تمدده المتصلب إلى لعنات حوه المنصبة على إسمه وذكره ولايزيد إلاتماوتاً ، وعلى أحسن الأحوال لايكون لهن أبداً حتى مجرد ذلك الذى كان بالأمس موجوداً وفاعلاً .

يجلس عمر قرب أم الفضل وأنا بجانبه أنتظره أن يقوم إلى البقرات عندما قالت له شيئاً عن التفتيش اليوم وتسأله إذا ماوصل أحد من أقاربه فيرد عليها بأنهم لن يجدوا له قريباً ولو فتشوا عليهم بأنفسهم فى المدينة سنين بطولها . يقول لها « ياخالتى . . كن سألوني أني كنت وريتهم . . كنت قلت ليهم يا أهلى لتتعبو ساكت . . صعاليك المداين ديل يوم كدا زول منكم سمع قالو الواحد منهم لقو ليهو أم ولا أبو ؟ الصعلوك ترا داهو فى حالو دى بس من يوم الولدو وجدعو لناس ربنا ديل . . يربا محل واحد . . ويفعلى فيهم فعلاً يوم واحد ماصدقو قال يبقى ليهم .. وأماتن فات وأماتن مات » . أم الفضل تخبره بما قالوه عن مأمون أنه يعرف أهله ، بأنهما لعبا فى حوارى المدينة سوياً . يرفع لها رأسه مرخياً مسبحته على تراقد ساقيه « كن عندو أبو كلو ياخالتى كان حار ذى مختار دى . . دقا وهانا . . بدل قال يبقا زول . .

كرها إسمو ذاتو . . براهو سواليهو إسم صعاليك صحي صحي ولقا ليهو أرزل الأشغال داك . . وفات بجدع في رقبتو وبزيد لثآمه ورزاله في ديار الناس » . . أم الفضل مصت في فمها لوهلة ثم حركت إليه ركن وجهها . «ياعمر ياوليدي . . أهلو ديل كن أهل كدي ولايجو يشيفو كيف مات كاو؟ كان قاعد بسوي شنو هني ذاتو ولايسألو ؟ خلي عربية الوليد . . شن بسمو ؟ كن في كرعيني ديل ياعمر ولانشيلي لي مويه وزاد ومن وقت جابو لي جوابهم داك وحات الشيخ الراقد أبو أبهاتي . . قال الشمس يطلع . . يلقوني قاعد ليهم في سوقهم دي . . يقولو داهو أمو جي ويشوفوني كدي هدو ناس وحدين ديل ياعمر ياوليدي ولاعندهم قلوب كلو دي ! . أني أمك يالفضل ! . وليدي يموت وولانمشي يا ؟ » . . كأن عمر سيقول لها بالذي يقوله عن عبد الرازق ، ووضعت أجمع إنتباهي عليه ، ثم رأيت البسمة في عينيه ولم أصل منه لشيئ وقتها يريحني عما إذا كان يخاف من أم الفضل حقيقة كما تقول له ستنا وإلا لأخبرها أن ولد ولدها يفعل المحظور وأنها إن لم تجد سبيلاً لمنعه ستلحق به في المدينة يوماً كما لحقت بأبيه .

لو كان له أب أو جد فسيكون مختار ، ولو كانت له أم أو أخت أو خالة فستكون حوه . أما حاجي فأبوه ذلك القاسي عليه أحمد مختار .سأعرف سريعاً ما إذا وصل له أحد ، وإذا لم يصل له أحد فلن يقدر سلامه أن يفتح راكوبته وبيته ولن يقف معه أحد يراه في غربة موته وفنائه يفتح بالقوة عليه مساكنه دون وجود قريب يرى له ويحسب له ويحافظ له على أملاكه .

لمح لي بعيد بياضهم من أطراف البيوت وجريت عليهم ، عيناي لا تتركان مؤخرتهم ، يختفون مع تزايد سرعتي من خلف دكان الحاج ، وتتزايد تخاطف خطواتي على الرمل الثقيل ، لايحسن بهم أن يصلوا هنالك قبلي ويفعلوا شيئاً أو يقولوا شيئاً ولو كنت تأخرت قليلا (ياللحظ) لكانوا فاتوا علي ووصلوا وفعلوا ولربما إنتهوا مبكراً ولذهبت تلك كلها مفقودة عني . إنعطفت من واجهة محل محمود ولقيتهم في آخر خط الرواكيب

الغربيه ، يتقدمون إليها تبعد عنهم دستة من الياردات ، هابطة بتهالك إسوداد سقفها القديم كأنها إنكسار ظهر حمار مغبر منبطح على صفرة الرمل . لمست يسار حامد ومال أحمد فضيل على تحركه فأصابت عيناه عيني ثم كأنه لن يبتسم ، لمدة يعتريني ذلك التخوف من أن يتوقفوا قطعة واحدة ويستديرون منفجراً فينا الفكي عباس أو الزين أو أياً منهم ويتحرج أحمد فضيل فلايملك غير أن يرخي يديه ، وسننصرف أنا وحامد متسارعين بعيداً عن فورانهم قبل أن يعاودوا تقدمهم . قبضت على يده فإبتسم ودخلت بينه وسالم وذاب مني التخوف بأجمعه ، أسمع إلى سلامه وعديل يتماشيان متقاربين كأنهما شقيقين دماً ومهنة .

— لوجايين ياسلامه ؟ . الفاتح ماكان رضا يجيبهم ؟ بكلام شيخ الربع ساكت ؟ إنشالله لوبراهم ؟

مأمون وبسوس ومختار ورجل البوليس وهارون منكسين رؤوسهم ، حاج أحمد بنفسه وكل بقيتهم تركوا الدكاكين مفتحة فيها الأولاد ، ولو كان القاطنون بالجوار يعلمون بأنهم يفتشون مبكرين هكذا لما رضوا أن يفوتوهم ولما كان قد وسعهم الطريق .

— فلقه دا ترا غريب ياجماعه ! . الود دا ياشيخ عديل راسو دا كان مليان شي ترا مليان شكوك .. شكوك ياهي وبس . ! أنا ماشفتو عمري أمن ليهو واحد في البلد دي في حاجتو لمن مات . . وكضاب البقول ليك شافو ! .

— الله يرحمو المسكين . .

— أمبارح دا ياعديل . . قلنا كان ماعارف إنو يجي يوم يحتاج فيهو للناس ديل ذاتهم . . عامل متفكر وماقايل نفسو يجيهو يوم واحد هو ذاتو آاهو يبقا وين . . عينات الدم شلناها وواقفين . . عارفين دا المسكين دا أهلو جايين ليهو . . لكن دا ؟ نقوم أنحن ياربي

نمشى نبقى ليهو أهل ؟ ولاتحرس بيهو أهلو لما يعفن فى إيدينا ؟ الوكيل قال لا . . شدو ياجماعه للفاتح الفاتح قام ليك فوقو . . مرق مننا يازول مره واحدى وراح . . الغربيه ضامنه شحنتنا ياخوى . . وأصلاً يا الشحنه صافى يالبليان بيهو وبس !

— ميتة الغربه ياسلامه ياخوى . .

— أنحن ومامون قاعدين وماعارفين النسوى شنو لمن طب فينا أحمد قال « ياخوانا الناس منتظرينهم » . . « ياتم ؟ » . . قال «الميتين » . وقع لينا يازول كلامو ودخل فى قلوبنا . . لو بس بقدر بعرف قال بحتاج ليهم يوم . . إتذكرت ياعديل قلت ليهم « أقيفو هوى يا أحمد ! . مفاتيحو ؟ » . . فتشناهو تاني تحت وفوق عارف يمين شي مالقينا . . الحاجات اللقوها معاهو ديك وخلاص . . . شوف البنى آدم دا ياعديل كان داسى المفتاح محل مامعروف وكن رماهو لجهة فى الخلا هناك وقت قال يموت داك . .

— وبيوتو مقفلين آا ؟

— ياعديل هو براهو الولد دا البليد ! . كان إلا دا بس ياخوى حتى لو أشرط القشوش دى ذاتا من الركن للركن مابدخل بسوى الدايرو ؟ قاعد براهو العامل قال إلاابالشكين دا وحيدو بعيش مع الناس لمن آاهو ! .

عندما بناها ود سليمان ذلك الصيف لم يفكر أهل البلدة فى أن يقولوا عنه شيئاً مما تحدثوا به عن الغريب الطويل ، جرّود سليمان بابها على قدمى منصور فى عصرية حارة ، شهد إلى جانبهما دستة من الرجال تسليمها إلى الشيخ ، ثم لم يسأل عنها أحد بعدها حتى كان يوم الغريب النحيل يستفسر من منصور عن محل يسمكر فيه . مثلما لم يكن أهل البلدة ليروا تباعدها عن خط الرواكيب الجنوبية إلابتوقفهم ينظرون ويتسمعون إلى الطرق الحاد من

داخلها ، يرون الغريب منفرداً يخترق بقلب السوق ويدخل فيها ثم لايعرفون عنهما شيئاً من دون الدخول إليها على قصد السمكرة . يقف منصور تماماً حيث وقف يومذاك ، عن يمينه سلامه وعديل ومن حوله بقيتهم . تفحصنا من تحت أيديهم إلى إنسحاق الخطى على طول الوجهة ورجل البوليس يقلب الطبلة فى يديه ويرفع ركن عينيه إلى سلامه ، لايزال يشغلهم الكلام. رفع الأمباشى رأسه وتلفت فوقهم فسكتوا له .

— ياجماعه . . مختار دا دفن الود فلقه زى ولدو بالضبط كلكم قاعدين . . أنا مابعرف ليهو أهل بلامختار دا وياهو واقف . . أنا بفتح الراكوبه دى وبمشى بفتح البيت . . الدايرو كن وجدتو الحمد لله وكن ماوجدتو . . مختار دا بس ولى فلقه يشوف على حاجاتو دى لمن يجو أهلو يابكره دللناها . .

أحنوا جباههم على صادق القول مستمعين ومسح مختار مراراً على خطوط وجهه الأشيب .

— مفاتيحو مالقيناها . . مافضل لينا إلا النكسر العود نمرقو . .

تنبهو ساكتين إلى رجل البوليس حين أمسك بشريط البالة المحيط مع الطبلة ولفهما فصفرت ملستهما على خشونة عمود السنط الكبير . أمسك حوافيه الخشنة ودفن قدميه وهزه بمناعة وهم يراقبونه يتعب نفسه ، ثم قبضه منصور من على كتفه وأزاحه . شمر الشيخ ساعديه وبرك وأشار إلى محمدين ، تقدم محمدين وبرك ، جلس الضو يميناً منهما على أعقابه فأصبحوا ثلاثة من حول ضخامة العمود وحفروا هادئين تحت مراقبتنا . أجال سلامه نظراته على أرض الواجهة وبجانبه حامد يفرق القصب بيديه ويدفن رأسه فيه متطاولاً إلى سواد مابداخلها . من فوق إنكبابهم أرخى سلامه يداً على العمود ودفعه فاستراح به متهاوياً راقداً بالقصب وأمسك عديل عليه ، نهض الثلاثة ، فجر عديل سلامه عنهم .

شددوا قبضاتهم الثلاث على إستدارة العمود وأمالوا أوساطهم على أوراكهم وهز لهما منصور رأسه فإندفع رأس العمود من السطح وتبعثر القصب وتشتت كل وجهة . وضعوا قعره المتآكل على التراب المحفور وأعادوا قبضاتهم أحكموها على أسفله وجروه فأنسلب الثقل على سواعدهم متدحرجاً مارقاً من إحاطة شريط البالة ، تكسر به قصب الواجهة لكنهم خلصوه وحملوه فجدعوه بعيداً . ذهب سلامه فإرتكز على الباب ودفعه ووقف مكانه ساداً عنا أولية المشهد ، وإنتظرنا له . دخل وتبعه عديل فالحاج وبسوس وإنتظر بنا أحمد فضيل حتى دخل منصور ومحمدين والضو ثم إتبعنا آخرين فوجدناها تمتلئ علينا .

كل ماهناك كان كالذى رأيناه كل يوم . لم أعرف حتى ذلك الوقت ما إذا كانوا يفتشون على شيئ آخر غير ما أعرفه ، شيئ خاص يدرون به موجوداً فى الراكوبة بين أدواته ، لايعلمون به أين لكنهم سيجدونه لأنه ليس حاضراً هناك ولأنه سيتركه مجدوعاً غير عالم بأنهم سيأتون عندما يذهب يفتشون عليه ويستخرجونه . كأنهم لأجل ذلك ظلوا يمنون أنفسهم عهداً كلما تذاكروا بحديث التفتيش . أما نحن (أنا وحامد أعرف ذلك) فقد حملنا دواماً أحر الشوق لأن نتفحص عن قرب فى شئون شخص مالايكون قريباً منا يحدجنا بنظرة متجاهلة . تساندوا طرفاً عن موضع النار فى الوسط وبحثوا تحتهم ، تجرى عيوننا على التكويمات المتبعثرة من الأمانات . فى الركن الجنوبي أشار الضو إلى صفائح عديدة ، أربع منها محكمة اللحام والباقيات مسدودات بقطع خيش داكنة متندية .

— صفايح صحبك مطر ياحمدين . .

أدار إليها سلامه وجهه من فوق كتفه ومشى خطوات أخرى متصبراً وقال لهما . :

— قول ليهو يجى يشيلهم بكره بدرى يامحمدين . . قبال الدلاله ! .

الصفائح الفارغة كانت فى ركن ، وعلى عيدان الجوانب علقت أباريق لامعة وجبنات متفاوتة الأحجام ، تعرف منها منصور على جبنة كانوا قد أوصوا عليها ناس بيت العمدة . طشت كبير جديد الرقعة يقبع فى الركن الشمالى وحلل سوداء مرمية على شرائح صفيح طويلة تملأ مابين الطشت وموضع النار . . حمالة قلة ذات ثلاثة سيقان علقوها على عمود الباب الثاني ، لم أفهم ماذا بها حتى قال الحاج .

– حمار زبونا . . جبنا ليهو قال يربطو . . ربنا قادر ! .

رفع محمدين مطرقة الخشب القبيحة أمام عينيه وقلبها ورفع رجل البوليس مقصاً طويلاً ومد إليه محمدين المطرقة فأخذهما إلى رف خشبى رقيق تتبعثر عليه أطوال غريبة من المسامير ووضعهما هناك . خرج الحاج إلى الواجهة وبقى سلامه عند الركن يرفس الأدوات بالشبط الثقيل ويلتقط شرائح الصفيح ويرميها وراءه . أخرج رجل البوليس ورقة وقلماً ومدهما إليه فنظر إليهما ملياً وحولهما إلى يده اليسرى وظلت عيناه تتحاومان على ساقط الأدوات متحولاً بين المتوزعين منا . قال بسوس . :

– ماشايف لى شى . . كن لقيتو شغل أوورونا . .

لحق الزين ومنصور بحاج أحمد وذهب بعدهما هارون وسالم وتوقف بقيتنا ، رجل البوليس ومأمون ومختار منتظرين لسلامه . لم يحاول أحمد فضيل الخروج كما لم يحرك يديه عن إمساكنا عليه ، مداولين الملاحظة على وجوههم الصامتة . كأن بسلامه ينفلت ذلك الشيئ من بين يديه الآن ، أصبح يمشى من الركن إلى الركن ، يرفع كل شيئ ويرميه . لم ينظر إلى أحد ولم يكتب شيئاً وأظنه يدرى بالآخرين وبالذين فى الخارج منتظرين له ، ثم وجدتنى أخشى إقترابه منا دون سبب أفهمه . قصب السقف أصاب قبعته فأسقطها من قفاه وإمتلأ رأسه بالسواد فتوقف ينفض رأسه ورقبته ، ورفع له رجل البوليس القبعة فأمسكها فى يده اليمنى . قال لهم .

— حنقول للعمده يخلى خفير يحرسو الليله ياخوانا . . تتدلل بكره لوماجات العربيه للوقت داك . . زى ماقلنا ولارايكم شنو ؟

أحنى مختار رأسه ولمس شاربه وقطع مأمون إنتظاره .

— حايجيك خبرهم للوقت داك . . وكن ماجا . . كلامى إعتبرو ماقلتو ولاإنت سمعت بي شيىء . .

تمهلوا فى الصمت حتى إنهمز مختار ورفع إليهم عينيه ، أسرع يقول .

— أيوا . . كن جوبس مبلقو حقهم ممسوك ليهم . . يشيلو بس من المحكمه . . ولاقاسى مرقانو دى . !

تحرك أربعتهم دفعة واحدة فأسرعنا بالخروج قدامهم وجر سلامه بابها وراءه وربطه بقطعة من السلك إلى القصب المشتت . رأى مربع الطوب حيث يقف بقيتهم وأطال فيها النظر ثم إلتقط عوداً رقيقاً وذهب إلى جانبهم وغمسه أسفله فى الرماد الأبيض مبعثراً فى حناياه ، وجد سواد الرماد من تحت البياض فقذف بالعود عند قدميه . نظر الرجال فى أعينهم لوهلة مريحاً أساريره مبتسماً .

— كفانا من دا . . بقا يلاكم لبيتو كمان . .

إعتدلنا التوجه على الطريق العام المتدلى وقال عديل شيئاً لسلامه جعله يضحك له . من فوق شوك الشفخانة رأينا الطبيب واقفاً على عتبة المبنى ينظر إلينا ، رفع يده ورفع له سلامه يداً مع الآخرين ، مررنا بعدها عكس إمرأة وصبى صاعدين خلف حمار محمل . البيوت رغم إكتمال إنتشار الصباح ثابتة جامدة على تلك الوحدة المنغلقة على حدود حيشانها وأشواكها . تحرك منصور من جوار الزين وجاور سلامه وعديل وإرتفعت بقبقته فى أذني محشوراً الآن بينه وأحمد فضيل .

— ياسلامه ؟

— آاى يالشيخ ؟

ـ ياخوانا كلامكم للسوق شنو حس ؟

ـ السوق مالو يالشيخ ؟

ـ والله . . الناس ترا إتعودو على السمكريه يا أهلى . . كن قال يقبلو يبقى ليهم مافى . . طوالى كدى بس . . شن يسوو بعدين؟

ـ آاها ؟

ـ أني أمنقول حس بدورو ليهم زول يشتغل ليهم شغلا نياتهم ديل . بقو ولابقعدو بلا الشغلات ديل ترا . . باكر دى تلقا وحدين واقفين هنى بصفايحهم بدورو لحمان . .

ـ وأنا نعمل ليهم شنو يالشيخ ؟

ـ تلقا ليهم زول يسوى الشغلات ديل . . عدتهم ديل كن تبيعى بيعى للوليد . . وليد ناس أم عجب . . ترا كلو كان بداخل مع فلقه يمكن يعرفى يسوى . . كن بالدين كلو كن أديتوهم ليهو باكر دى بلمى قروش بديكم وبمسكى للناس السوق . .

ـ هاآا . . لايالشيخ ! . إنت منسألك آآ ؟ فلقه أداك قروش الراكوبه وحق السوق ؟

ـ هياخي . . ولاسألاني كلو دى ! .

ـ طيب . . وأنا قروش المحكمه كن إديتو للولد التقول دا . . البخلصنى منو شنو ؟

سكت منصور فى مشيه حتى يئست من قوله وبدأت أسترق النظر إلى وجهه المكتنز المستدير ، ملبدأ بمزيج كثيف من الشعر الأبيض والأسود ، فى تجهمه يخطر بدأب وتعجل ليماشى حركات الشبط الخفيفة وتداول ساقى عديل الرقيقتين من بين رجلى سلامه .

ـ طيب جيبو ليهم زول من مداينكم دبل يمسكى ليهم السوق . .

— آاي يالشيخ ؟ .

— دنلو بضاعتو وعدة بيتو . . لكن خلو عدتو حقة الشغل ديل . . يقعدو زى مبيوعين للزول البجى بمسكى ليهم السوق . . كن وليد ناس أم عجب . . وكن زول واحد يجى ليكم بالعربيات . .

— والله . . شفت يالشيخ . . كن تشترو عدة الصنعة للسوق أنا موافق . . وكن ود ناس أم عجب دا بقدر بشتريهم ياهو كويس بس أنا ما بدين حقة المحكمه لبنى آدم ! . وكونو يجى زول من برا يمسك السوق ولايمرق واحد من هنا يشتغل الشغلانيه دى . . دى ماشغلانيتى أنا . !

قطع عليهما عديل ذلك الحديث عنيفاً حار النبرات .

— ياناس خلونا حس أهلو بجو . ! لباكر دى مابعيد ! . بجو ياأهلى !

جئنا إلى باب الصفيح فأحطناه وإنبهتنا بمفاجأة خفيفة محيرة ، تتلمس أيدينا فوق ثقب المفتاح على بقع اللمعان الساطع بالحرارة ونخلل أنا وحامد أصابعنا من خلال القصب فنلمس من الداخل على إمتداد القفل عبر عمدان الباب . رمى رجل البوليس حجرين كان قد إلتقطهما من بين ركام كسار الطوب بظهر شوك الشفخانه (كنت أرمقه كم يتحرق على الوصول هنالك ليرى طبلة أخرى علقها على شريط بالة سميك ورفض أن يترك لها مفتاحاً) ومسح بيديه على أربطة ساقيه وإعتدل ينظر إلى سلامه . بان شبح رجل يستند إلى مدخل البيت المقارب غرباً ، من حين لآخر يلتفت إلينا وسلامه يلمس على الصفيح ثم يحول عينيه بزعل خفيف فى إتجاهات بعيدة . صرخ بالتسرع رافعاً يده إلى شبح الرجل .

— ياخينا . ! كدا جيب لينا عمود . ! عمود . !

إختفى الرجل من بابه وأعدنا النظر إلى القفل ثم رأيناه بالعمود على كتفه يهرول إلينا . سلامه نفسه ورجل البوليس ومنصور عند نهايته لزموا

العمود على آباطهم وتأرجحوا به ثم رزموا معاً تماماً فوق الثقب فأصبح سلامه ورجل البوليس هناك داخلاً مع الصفيح وإرتكز منصور بيديه على حلقة الباب وفى جلجلة الضحك قال عديل .

— والله رجال . !

هرع وافد من الجيران إلى بيت فلقه ، يدخلون من الباب المحطم متسابقين ، تبرق أعينهم عند العتبة بلهفة اللمحة المباشرة على أعقابنا فيندفعون فينا ، يقبضون جيب الرجال يسائلونهم عما يحدث صباحاً هنا فى بيته ، لايكادون يصدقون بأنفسهم داخلاً ، يتلفتون فى أرجائها يطاردون توقعات غريبة عما يمكن أن يوجد فى تلك الأركان من شواهد عيشته وغرائب أخرى مما لم يصدقوا بها من أعمال هؤلاء النفر الغريبين من أهل المداين . تركوا القطية كإنما على إتفاق مبكر لأجل أكوام الصناديق المجمعة فى الركن الشمالى مبعثرة بين الحوش وظهر القطية ، صناديق فارغة من كل نوع ، صناديق الشاى الرقيقة وصناديق الأقمشة من سميك الخشب مرصوصة فى نظام هرمى هائل وأجزاء مقطعة من صناديق الصابون والبطاريات متناثرة منها الألواح وشرائط البالة ، بعضها لا تزال تتلفح بطبقات من الخيش ويملأ أجوافها لفائف من رقائق الخشب . وقفوا عليها مطولين وصعد رجل البوليس إلى أعلاها وجلس ثم رقد ينظر فى فجواتها وينخر بيديه فى فراغاتها. كنت أحسب أنهم سيدخلون أولاً إلى القطية ، يقف مختار بعيداً عنهم فى الإنتظار يملأ وجهه هم صعب كأنه يريد لو يتراجع خارجاً فى إنشغالهم وينصرف تاركهم فى بيته الذى تمنوه . لو يكتفون الآن مما يجدونه فى فراغ تلك الصناديق ويفتحون القطيه (ليس عليها أى قفل مجرد أن يدفع سلامه بابها بيديه ويدخل) لندخل عليه فنجد ما كان عنده ، ماكان يلقاه حاجى هنا معه (ذلك الذى يخافه مختار كأنه منه ليطمس خطوط وجهه أو يهرب فلا ينتظر حتى يصدم به بينهم) حتى يتمسك عليه بذلك الإصرار . أحادث نفسى جانباً وحامد مع أحمد فضيل وسالم ، ثم إقترب هارون من مختار رافعاً

إليه وجهاً منبسطاً عارفاً .

— صناديق الفاتح . .

— هاآا ؟ .

— بشيلهم مرات بجدعاهم هناك جنب الشارع . . على الحلال ديلاك الفوق . . فى الخلا على جهة مسايل الجلابي . . بقول لينا يوماتن لمن جاى بلف على الحلال بقول للنسوان يلمو ليهو طباق . . بشترى منهم رخيص قال بودى ببيعى فى أسواق المداين بسعر سمح خلاص . . يازول البعرفو الشغاليت ديل ترا لاقين مكسبه . .

— ناس متفكرين . !

— يوم داك بالليل ماشى بينا كدا وقف فيى الخلا . . صندوق واحد كبير قاعد قريب للشارع . . نزلو مساعدينو زاحو الركاب رفعوه فى محلهم ومشينا . . تقيل خلاص فى البنشاف لى . . قلنا ليهو « كملتى طباقنا يازول » . . ضحك لينا قال لينا « الولا عندكم ليها فايده كلو أدونا ليها » . . قلنا ليهو « يالفاتح ولاتخافو الناس يسرقو صناديقكم ديل ؟ » . . قال لينا « هاآا . . مافى زول بسرق هنا فى الجهات ديل . . إيه المتعبهم فى البرد والأهويه دى فى الخلا عشان صندوق أما فاضى أما معاهو ناس ؟ . ناس الحلال البجيبو بروحو حس دا بس لما بشوفو نور العربيه » . . قلنا ليهو « والله يازول جننونا فى السوق . . إلا فلان قال شى الفلاني مفقود من دكانو . . وفلان قال سرقو منو شغل داك . . وولاتعرفى البسرقو ياتو ! . بسرقو ككيف ذاتو ماتعرفى » . . ضحك قال لينا يازول « آاى . . السرقه ببقى فى الدكه ديك ماغريب . . الناس كلها مانضيفه » . .

شقهم سلامه قادماً بتصميم بين وإنتشروا من حولنا . عند باب القطية أفرد رجل البوليس يديه على تدافعهم فإستقروا متفهمين له وتباعدوا ليتسرب من بينهم على خطى سلامه حاج أحمد وعديل والفكي عباس وبسوس ومنصور ثم كنا أقرب الجميع إلى الباب فمد يده إلى أحمد فضيل وتحاشينا نحن التعجل وانحنينا فوصلنا لهم بداخلها . تحدثوا مؤخراً في ذهابنا فأسهبوا القول حول ماإكتشفناها هناك في بيت فلقه ، عن الإتساع وعن النظام وعن تلك الرائحة المخدرة (أخلاط من دواخين التبغ ونثار المحاليل الحشرية ومتبخرات الكحول وأشياء لا أعرفها) التي تتوغل بغتة إلى القلب وتجرى في الدم وتمشى على سطح الجلد فتلمع أعيننا كل المتحاومين بالداخل ببلاهة شريرة ، كأننا جميعاً ننقلب غلباً إلى جنس غيرنا من الناس نسير بلا قوى نفكر في لاشيئ ونفعل مالانشاءه . فقط بقى على قوته حب إستطلاعنا ذلك القاسى الذى أحضرنا إلى بيته ، تحوم به عيوننا على المتاع ونتهرب بخوف عصبي عن التريث عند لذاذة القماش الأبيض الذى يكسى قبة القطية ويتدلى إلى التراب النظيف البارد .

سرير الحديد يتمدد عالياً منتفخاً بالمرتبة والوسائد وزركشة غطائها، تحته شنطة حديد ضخمة عليها جزمتان سوداوان . العنقريب والمرتبة والوسادة العاريتين يكون موضعه هو الذى هجر جده وخاله لأجله . كأننا لن نرضى أن ننظر إلى العنقريب نفتش قريباً من رائحته ومختار واقف في قلب القطية يرتجف بضرورة الإتزان ويمسح على وجهه بكفيه . قريباً من الباب تتعلق بشماعة خشبية بنطلونه وقمصانه وجبة حاجي الخضراء ، لن يلمسها مختار ولن ينصحه أحد بذلك قط . سلامه ورجل البوليس يتلمسون تحت الوسائد والمراتب وتحت المراقد ومابين الكساء الأبيض والقصب . جر سلامه شنطة الحديد إلى وسط الرجال وجدع عنها الجزمتين وهز الطبلة في قضبان القفل مرتين وثلاثة فأحاطوا به . نفض رجل البوليس قطع الملابس والعلب من الصندوق الكبير الجاثم على كتل من الطوب بعيداً عن المرقدين مندفناً بقعره

عند إستدارة القصب والتراب . قال له سلامه ماداً يده من وراء ظهره.

— شوف لى حاجة تكسر الطبله .

غلغل الرجل بيده على كتلة الطوب أسفل الصندوق وإنتظرت له يد سلامه ثم إلتفتنا إليه فإذا به باركاً يدفع بواقى المنظور من ساعده أسفل الصندوق ويلز بثقله جسم الصندوق إلى أعلى . تحرك الضو وبسوس سوياً فرفعا الثقل عنه ذاهبين به من فوقه واضعينه عند رأس العنقريب . جلس الرجل الآن على عقبيه وألقينا بأبصارنا أمامه مستغربين ممسوكين إلى جسم الصفيحة المفتوحة الملبسه فى تربيعة حفرة مستوية فى بطن الأرض . بدا رجل البوليس تجوسان فى حفرة الصفيحة ونسمع منها إلى صلصلة الحديد ولم يتحرك منا فرد ثم قام بالقدوم وجاء إلى سلامة عند الشنطه . تكسرت الطبلة فى طرقتين وفتش سلامه فى الملابس مدة غير يسيرة ثم لزها بإستياء تحت سرير الحديد وتبع رجل البوليس إلى حفرة الصفيحة فسرنا من وراءه .

ربما لو كنا نعلم كم سيزعجنا ذهابنا ذاك لما كنا ذهبنا إليها ولمنع سلامه بأى حال ممكن إطلالنا فيها . قاعدة الصفيحة بأسرها لمعت فى عيوننا بأشكال حديدية لامحدودة ، كإنما كل حدائد الدكه تجمعت فجأة هنا دون أن يكون لقدرة الإنسان على الجمع يد فى تلاقيها . طبل ومفاتيح وأقفال مربعة من كل الأحجام ومفاتيح للكبير والصغير وأسلاك معقوفه ومقالم ومناخس وكل شيئ دق من حديد ، تتداخل متراقدة ومسننة ومكسرة . رأيت العجب فى ملامح الرجال ولم يزل عن وجه سلامه إستياءه الغامض ، إلارجل البوليس فى عفويته الملحة ينحنى فى مركز أنظارنايقلب فى صلصلتها الدائبة فيبرز من بين يديه حيناً قفل غير عادى ومفتاح لولب وكماشةوسلاسل وزرديه ولايتوقف عن التقليب . سيقول له سلامه كفى ويعيد الضوومحمدين وضع الصندوق عليها وسنخرج من بيته . فاتنى أبلغ الفوات لحظة إبتدائها عند عديل لكننى رأيت يده تندفع إلى ساعدى رجل البوليس ويرتفع وجه

الرجل فيكون عديل متشلخاً على الحفرة ورجل البوليس واقعاً على القصب وحين إستدار ظهره على الحفرة قبضت أذناي ببواقي مانطق في هبوطه عليها

— كدا أقيف . ! أقيف هوى . !

دار علينا عنيفاً رافعاً بهما يديه وإنبهل التراب في حفرة الحديد تحته ووضعنا همنا في يديه ومظهره ، وجهه ذلك الصبوح مثلما يكون قد تمسح بسواد الحديد وضرب عينيه على صلابتها فالتهبتا وحدقتاه ، يهزهما إلينا في يديه المرفوعتين .

— زرديتي وكماشتي . ! عبد الرحيم ؟ زرديتي وكماشتي . ! بالله ياجماعه ؟ شيف ! . عبد الرحيم ؟ زرديتي وكماشتي ذاتهم ! .

أمسكها منه عبد الرحيم بسوس وقلبهما وإنبسطت له أساريره وعندها حام بتفحصه على وجوه الرجال وإنبهل التراب الأحمر إلى حفرة الحديد تحت قدميه ثم نزع قدماً وإبتعد إلى وسط الرجال ولم يترك وجهه الحوامة عليهم .

— تمانيه شهور من فقدتهم . ! الزول الولا سألتا ياتو ياجماعة ؟ بالله عليكم ؟ بالله ياجماعه دا ماحراميه ؟ داميهم هني في بيتو . ! في بطن الوطا ؟

مد عبد الرحيم بسوس الكماشة والزردية إلى حاج أحمد وإنتقلنا إلى سالم وإلى منصور وبقينا على الإستجابة لتحوله بيننا يجدع يديه ويخطو متدافعاً في الرجال .

— الليله دا لو مابقا من المرحومين . ! أستغفر الله . . بالله ياجماعه نوري قدامكم كلكم ديل وحياة المولى شنات أفعالي وحدين لمن يستعجب . . لكن بختو هو كلو . . بختو ود ال . . !

— عديل ؟ .

— أستغفر الله . . أستغفر الله . !

إنتزع الكماشة والزردية من مختار وأرخى بهما يديه وشق الجمع خارجاً. رمى سلامه نظراته إلى الأرض لفترة ورفع عينيه إلى ضوء الباب ثم أشار إلى رجل البوليس فلما رآه أشار إلى الصندوق وحمل معه الضو فغطوا حفرة الصفيح وتحركوا من ورائنا بإتجاه الباب . جر سلامه باب الصفيح وربطه رجل البوليس بحبل مزقه من القصب . إخترقت الحرارة جبيننا مثل سيخ حام وتململوا على المشى ولم يتحرك وجه سلامه عن إكتئاب السأم العميق .

— ياعديل ؟ الزرديه والكماشه قلت حقاتك ؟

— آاي ياخوى . .

— جيبهم واكتب بيهم دعوى ودى المحكمه . . يثبتو فى الدفتر . . بكره بعد الدلاله يشهدو شهودك ونديك ليهم . .

تحول عديل بتفحصه إلى سلامه ولم يتحرك ولم يقل شيئاً ثم نظر إليه بسوس فتحركت يداه مبتعدتين فى حركة خاطفة وأسند رأسه فتوجهت عيناه إلينا حول سلامه .

— شهودى ديل كلهم ولاشفتيهم ياسلامه ؟ أني دى ذاتي ولا تصدقيني ؟ ساكت كدى نقول للولا حقى داك حقى . . ؟ وهو الحرامى ود الحرامى تصدقى ماكدا ؟

— عديل ؟

— يازول خليني . ! كن الناس ديل كلهم ولاعجباك شهادتهم . كدى قول لى ياخى ! . زول كن لقا حقو فى إيد الحرامى كلو ولايشيلى ؟ دى نظامك التقولى ؟

— ياعديل تدينى ليهم وتقدم دعوى وشهود . . تاخدهم بالنظام . .

— يازول نظامك مشناتو . ! ياسلامه الله يلعن نظامك دى ذاتو ! . ورينى كن تدورى لمن يسرقو السوق دى كلو حتى الناس يقولو

للحرامى إنت حرامى ؟ أنا عرفت زولكم دى قدام الناس ديل كلهم . ! سرق زرديتى و كماشتى . ! هو حرامى . . والبعرفى حرامى . . والبستر ليهو حرامى . . ووالله لو مابختو بقى ميت ! . مش نشيلى منو حقى وبس . . والله إيدى دى ندسى ليهو فى عينو

— عديل ياعديل ؟ !

— عديل . ! ياعديل ؟ . نظامى المابعجبك دا ماسك بيهو البلد دى . ! بس كدا . . تتبعو إنت ولا لا ؟

— مابتبعو يزول . . مابتبعو . . مشنات نظامك . . والله يازول كن إلا دى نظامك ياريت كن تخلى لسيادو . . هو السواهم كلهم حراميه وملو علينا البلد دا شنو بلانظامك دى ؟ لو كل صعلوك وليد صعلوك من جى كدى بهددو . ! بعرفو مركزو ! . بعرفو ليهو ضمانات . ! كان الناس شكو كل يوم سرقو منى وسرقو منى ؟

— عديل . ؟ عديل يازول أسكت ! .

— عديل أنا الدرب البمسك بيهو البلد دى ماشئونك . ! إنت ما ختيتنى هنا لمن تورينى البعملو شنو . ! أرجوك أحفظ سمعتك ! . قول لى آاى وبس . !

— والله يازول أبيت . ! حقى دى كدى محل لقيتا نشيلى . ! وولا محتاج ليلك تكوسى لى . ! وولاإنتى يوم واحد كوستى لى حاجتى ! أمش بقدرتك دى أسال فى سؤلاتك ديلاك كن تلقا حقات الناس الكلو يوم باكين ليك ديل . ! كن إلاسؤلات المجانين حقاتك ديل . ! وحات المولى ياولد ! . كن إلاسؤلاتك ديل قال يبقو حكم ! . هدو حكمكم دى خربت وباظت ! .

— عديل أسكت . ! عديل الله والنبى تسكت . !

هجم عليه عبد الرحيم بسوس وحاج أحمد وسالم والفكى عباس فأدخلهما فى جيبيه وشدد على نفسه ولم يتخلصوا من الإصطراع ولايزال عديل يصرخ بكلمة تكممها يد منهم ، ردسوا على الأرض بلاتوقف ثم رمى سلامه بعينيه إلى الأرض وهز رأسه . تصبروا الآن محيطين به ينهر فيهم متوعداً وبردوا إلى كلام وكلام كلام كثير ، ولم نعد نشعر بالجر ومن وراء الحيشان تحركت أجساد النساء المستطلعات عبر الطريق . لم نفهم من تجادلهم كلمة واحدة وقلت فى نفسى سيغضب سلامه ، وأصبحوا جميعاً الزين ومنصور ومختار نفسه عنده، ثم أوقف رجلين صاعدين على الطريق العام دابتيهما وأطلا فى الكلام . نزل الصمت على دائرتهم مباغتة كأنما غطوا عنا بطبقة شفافة من عازل الأصوات ، كان ذلك أو آن بكى عديل ، سحدث سالم أحمد فضيل عائدين . ترك لهم جيوبه فجأة ورفع وجهه المتفحم فى أعينهم وإمتلأت عيناه بالدموع ثم شهق وإنتفخ وتنهد وجمدوا دونه لم يرفل لهم ثوب ولم يتحضر لهم قول حتى أنهك جوفه المتنازع أجمع زفيره وإستغفر هابطاً فوفد كاسياً وجهه ذلك الصبوح الأمثل وعندها مد له حاج أحمد يديه فأعطاه فيهما الزردية والكماشة .

التعاريف تتصادم فى يدى تتحاكك فى تعرق قبضتى وتتمسح متخللة من أصابعى فأعيد قبضها ماسحاً بنظراتي دكاكين السوق من أقصاها إلى أقصاها ولاأرى أين يكون لى أن أجدها واليوم ليس سوقاً عاماً ...هو عالم بذلك تماماً ويصر عليك كأن العجل لن يعيش للغد إذا لم يربطه أو أنه لم يبيت من قبل ليلة واحدة من دون رباط . سقطت إحداها وجلست فالتقطتها وقالت المرأة الذاهبة عكسى نصيحة عن اللعب بالنقود . ليجد شيئاً ضئيلاً عن البهائم وسيستمسك به فلا هو يرتاح ولن يتركك ترتاح حتى يتم لها ذلك الغرض الذى أراده فيصمت عنك ويخلى بك إليها هى تتابع قدومك وخروجك موجودة أم غائبة صاحية ونائمة كأنما درايتها تجدك أينما سرت دون حاجة

منها لأن تراك . راكزاً بقلب السوق تحت إنهمار الصفرة اللزجة من الإشعاع البارد وجدت صدرى يمتلئ ببشاعة العصرية وجدبة السوق وكرهتها كلها فوقفت أنازع فى نفسى وحشتها الطاحنة وألقى باللوم على عمر ثم على فلقه وعلى عديل وأمكث عند عديل فيتأخر بي تدريجياً ذلك التنازع والتطاحن . من موضع خفى فى وحشة الرواكيب من بين الخيوط الصفراء المجدبة الساقطة على موضع إرتكازى أجد عديل وأقبض عليه ويقترب فى سمعى فلا يكون هائجاً وباكياً كالصباح . التعاريف تصطك فى تعرق قبضتى وأبحث على عديل ومعه يأتي جمعهم ولايرجون حوله كالضحى فيملأ صدرى دافق من الأمل فيهم وحتى فيه الصعلوك اللئيم . أنسى عمر أقول من هذه الجهه نعم من هنا نعم من عند الضو وأهرع بين الظلال متعدياً بتواصلها وعيناى عليه مخزن الزنك المطل من خلف دكاكينهم المقفلة .

مخزن الضو مخزن ، يقولون ، الصلاة على النبى مخزن الضو مخزون جميع حوائج البلد ، فى مخزن الضو تجد طلبك يبرد قلبك أو تيأس منه فتقنع دونه . سأدخل عمر فلايملك غير أن يقلب ركام الأدوات لأجلها وسآخذها إليه فيبرد عنى وسأجد حامد أو زين الدين أو أى منهم قبل المساء . على تطاول الظل مدوا البساط الكبير وفرش لهم السجادة قريباً فتوزعوا وإتكأوا وتراقدوا لشيئ ما ذلك الذى من أجله أقفلوا دكاكينهم مبكرين ، كإنما ناداهم عنده على تطاول ظل الزنك المغطى إلى قفا دكاكينهم عبر الطريق . من بين توزعهم يقبضنى عياط عديل ويتمسك بي وأبحث عن الضو متفحصاً ، يغطى على تحركى إظلال موضعهم وتبعد من حواليهم متلاشية خيوط الصفرة المكتئبه الموحشة .

— مايوجعنى وحات المولى إلا دى . ! وحات المولى كن لى مراد وقت ينفخو لى صدورهم زى نشيلي التراب دى نكمدى ليهم فى خشومهم . ! يعجبوك فى قعادهم بالضحك فى الناس وولاشايفين نفسهم . ! وديل هواناتنا ديل كمان يفتحو فوقهم خشومهم

وعنينهم زى المهابيل يسمعو ليهم بقولو فوقنا المابتقال داك . .
يقعدو يراعو فوقهم زى دا لمن يوم واحد تقع واقعه والصعلوك
يمرق صعلوك قدام الناس ديل كلهم يشوفو رزالتو ووسخاتو
وود كلابيتو . !

يقهقهون ويقهقه الضو عن يمينهم فأجده وأستبشر به فأميل إليه دائراً حول تراقدهم وتضاحكهم وعديل وسطهم إلى اليسار يحوم برأسه عليهم منتفشاً بالعياء الممتعض ، ضاغطاً شفتيه مثلما يكون أولئك الصعاليك يركنون من ورائه ، يعون منه دقائق مايكيله على فلقه منذ الصباح . إقتربت من الضو وجلست ولم تتوقف فيه القهقهة الخافتة ولم ينظر ناحية قدومي وتغلب بداخلي الخوف الطفيف فانتظرت له مرتعشاً بتوقع إلتفاتته المسرة ، ثم قال محمدين .

— أب عديل ؟ أب عديل ؟ إنتو مالكم يناس كن تقولو الحق ! .
مالو لو قلتو هو خوفاكم كلكم الهنى ديل بس . ! داهو إلامات
حتى قمتو توا ليهو إلاشنو وإلاشنو . ! إسم واحد ولاخليتو
ولاسميتو ! . الله يرحمو كان راجل ماسك نفسو ولايوم جاليكم
كايس شيى . . ماشي وحيدو وولايهمو قال زول فى بلدكم دا
كلو . . ولايحترم زول قال وولاهماهو كن بعجبيكم وكن
ولابعجبيكم . . ياأب عديل إنتى دى ذاتك قاعد فى قهوة أب
عبد الرحيم دا تسمعو بقول كلامو داك في مأمون مالو كن قلتا
حاجه ؟ ماقال قدامكم مأمون عامل بريد الناس وودالناس ؟ قال
عاجبو بلدكم وبحترم كبير كم وصغير كم ؟ قال ليكم عديل زى
دى . ! هو ماهماهو قال بيكم شى . !وكلكم ديل عارفنو رايو
شنو فوقكم . ! ولاخفتو منو شنو دا ياأب عديل ؟.

— هاى يامحمدين ؟ محمدين ؟ ياوليدى أني ولاخفت من زول . !
وولا أمنخاف منك ياولد قال تخوفينى بكلامك دى تشيلنى اللوم !

أني الكلام التقولى فوقو دى نقولى لباكر ولبعد باكر صعلوك ورزيل وانتى شفتى السوا . ! كن خوفاهم خوفاهم هم ناسك ديل الحكام قالو . ! وولاأمنخاف من عملك العمده داك بيتو . . يمكن خاف منو العمده وناسو خلو فى بلدهم بخرب ليهم . أني مسكت لساني ياولد . ! أني مسكت لساني !

لم يضحكوا وشملهم الصمت فحفر حاج أحمد فى التراب بعود ولم يرفعوا وجوههم ثم عرفت أنه سيلتفت إلىّ الآن وجاءني كفه ثم همس مستديراً بسروره فى وجهى واحتواني فى بشاشة لقائه الحميم . .

— أخونا عثمان ؟

— إزيك يالضو . .

— أمس قالو لينا خبركم مع الزول القديم داك . . وحدين بقولو إنتو ساكت خوافين ووحدين قالو عندكم حق . . كن لاقيتو بذاتو ومرقتو منو دى حدو ولاسلامة الرقبه ؟ وولاكرمتو دى ياخى ؟ شنو خبارك ؟ .

— عمر رسلنى ليك . .

— أب عمر وين ولابنشاف ؟ قال شنو ياخى ؟

— قال عجيلتو بلاارباط . . قال تلقا ليهو حبال قال كن ككيف كلو تفتشى ليهو مخزنك . . قال كن بات بلاارباط بمشى بلقا مصيبه واحد . . من مشيتى الضحى ماخلاني لفيت السوق دا كلو وولا بتلقى . . قال إلاتجى ليك . .

— أب عمر تعبان مع البقر . . سمح خلى نسمعو كلامهم دى شويه ونقومو نشوفو . . خير ياخى بتلقى . . إنشاألله عجيلتو يبيت الليله فى رباطو . .

بالمباغتة الخاطفة تركني فإصطدم تشوقي أن ألح عليه (ليقوم لها وأذهب بها وأتخلص منهما ثم أهرب إلى حامد أو زين الدين) بعرض ظهره وإبتلعت جموحي وإسترخيت على قعدتي راضياً بالإستماع معه . إلا أنهم لم يتحدث منهم أحد ولم يتحركوا وعرفت أنه سينحني الآن على واحد منهم وسيهمس له فيأتي عليه الآخر بالرضى والفرحة ، مال على الجالس من يساره فرقدت على ظهري لأجده سايس حاج أحمد تلمع عيناه في همسات الضو بالبشرى والترحاب وتزول كالغشاوة خيبة أملي فأصيخ إليهما جامع السمع .

— قلت ياخي . . مع حاج أحمد وجعوكم ؟

— أولاد الكلب يالضو زي الموصينهم . . على اليمين يالضو زي سرقو مصيري نفسو فاتو بي مع الحصان . . حسن دا كلما بقول لنفسي يازول قوم أرجع لأهلك الدرب دا إنقطع بيك . . برجع بقول لنفسي لاياود الحلال . . مافي فرق بينك وبين حاج أحمد كدي إنتظر شويه إتصبر . . يالضو أصلي بنوم كل يوم في القطيه البرانيه دي . . كل ليله حركة الحصان دا ماينقطع مني . . تقول يالضو حتى لمابنوم بسمع زي الحلم بحركتو . . شفت زي الزول النايم مع جني إيدو عليه كل حركتو هو حاسيها تقول نومهم واحد مانومين . . آهو زي داك . .

— كلياً ماسمعتو أول أول أمبارح ؟

— ياريت . ! ياريت لو سمعت . ! أولاد الكلب زي السحره ! . أنا جيت بالليل من ونسه في بيت ناس مأمون . . بسمع ليهو بضرب الواطا وبنفخ مناخيرو . . رقدت سامع ليهو بتمرمر . . باقي هو بترفس شديد خلاص لمن عيدان الحوش والقش يتكسرو من الضربان . . قلت للحاج يكلم الفاتح جيتو دي يخلي الشحنه لينا أنحن يودينا السبق . . سبقهم السنه يبتدى الأسبوع الجاى . .

لو تصدق يا الضو الحصان دا تقول عارف الفي قلبي . . وقت
نروح الوادي المسا ونشوف لينا سكه كدي وأميل بس شويه راقد
على السرج . . الطيرين شفتو يالضو ؟ ! الكرعين تقول الواطا
مابلمسوها ؟ ! محل النقيف دا مانوصل منو البيت إلا العشا . !
على باليمين مش بجيبو خيل إسطبلاتهم ديل . ! على اليمين يلمو
خيل الواطا دى كلها أسبقهم بيهو . ! يمين بالله نجيب للبلد دى
ذكراً يوم ماسمعو بيهو . ! لكن هشم يالضو ترا ياهم فاتو بيهو

ــ ترا الحاج داهو رسل مرابطين في المداين كلهن . . هو الحاج
موجوع وجعاً وأب عبد الرحيم زي يموت ليهم . . والله يازول
ما كويس جوادنا يشيلو مننا زى دا . . غايتو أنحن مابنديهم فرصه
محل ماودوهو دا كدا نلقو كن أراد المولى . . والله يازول لمن
حاج أحمد يركبو بسرج دار الصعيد داك عشيه ويشقو الحله ! .
يرفع ليك رقبتو داك زي الزراف ويفتح صدرو زي الجبل ويغزز
ليك كرعينو . ! والحاج ترا ركاب . ! يازول والله زينه ! .
كل زول بقول داهو ركابو . . إلاقلقه المايقول ياخي . !

على خافت ضحكات الضو إلتفتا إليه معاً محمود وحاج أحمد وتزعزع في نفر من الجالسين سابق الإنكباب فكإنما دون قبولهم بجاذب الإنتباه وضعوا بالهم عنده وظلوا منتكسين بالصمت يحملون ثقل مرارة عديل ولذاعة محمدين على ما أفرطوا فيها من مسائل البلدة . وعوا جلهم بفلقه ذلك الطويل الجاثم كابساً كأنه ظل واجهة مخزن الزنك يعلو فوق رؤوسهم حاجزاً عليهم حابساً خيوط الضياء الرقيقة الجديبة مثل شبكة من شفافية الظلام الهابط ، يتساءلون مالذي أعاده هناك عند الضو والسايس متأكدين منه شيئاً ثانياً غير هيجات عديل أو مدافعات محمدين وكل الذي عرفوه من أحاديث السوق . سأله محمود :

ــ قلت شنو يالضو ؟

– قلنا ياخي كلام فلقه في ركبان حاج أحمد . . مقــال الحاج ولابعرفني بركب في جوادو ؟ !

– قال شنو ؟ .

– والله ياخي القالا داك كتير . . الحاج دى بعرفني كلو . . بقولى ليهو قدامو ترا ولابدارى كلو . ! هدو زول كن قالو مجنون بجواد حاج أحمد هدو هو فلقه . ! قال لينا هني كلنا قاعدين حاج أحمد جا راكب في فارس ماشين بالشارع التحت . . عنينا فوقو وقلوبنا فوقهم قلنا « والله ماركبو إلا الحاج . ! تقول سوو الحاج قال يركبا وسوو قال الحاج يركبو » . . قاعد المرحوم معانا مكشر وشو قلنا ليهو « مالك ؟ ماعاجبيك ولاشنو ؟ ولا عندكم متيلو دى ياخي ؟ » . . كشر لينا وشو عنينو فيفارس قووى قال لينا . . « حصان حصان ! . مايستحق يدوكم تبهدلو كدا . ! حصان لكن لو لقا الزول البركبو ! . خلى ينزل لى أنا دا نوريكم بركبو كيف ! . لو الواحد يوم رفع كراعو فوقو نوريكم يامساكين ركوبو كيف . ! لو الواحد مره ركبو ليكم تشوفو الحصان دا يبقى كيف . ! يبقى شنو . ! لو الواحد يوم ركبو » . . ماخلانا ياخي العشيه كلو قال هو براهو بس اللوركبو يبقى إتركب . . قلنا ليهو طيب أركبا . ! يازول نسوو ليهو شنو ياخي ؟ . الزول زى الصايبنو يومداك بالجواد وركبانو ! .

– يالضو ترا بجنو داك داير يجنن لى منعم . ! كان قال لمنعم نعمل ليك جرس لفارس . . سوا الجرس داك شالو منعم ربطا لفارس قاعد معانا جوا كدا كن سمع الجرس مرتين تلاته يقوم يقيف الوليد على حيلو يعيط فوقنا « أسكتو . ! أسكتو . ! أسمعو فارس بحمحم حس » . . ولانسكتو كدى الحوش كلو بتملى بحمحمتو . نضحكو ليهو . . كلنا بقينا نعرفو وقت الجرس ينسمع مرتين

تلاته نسكتو كلنا نسمعو ليهو بملى بيتنا حمحمتو . توا أول أمس
مع أمو لقو الجرس واقع إنقطع ظنى فى صراع فارس مع الحراميه
مسكا بهز فوقو قريب لأضانو قام وعاط لينا قلنا جن ! . مع عبد
الرحيم قبال قال نمرقو منو للمغربيه . . نسألا باكر بقول لى الجرس
يسوى ترررن دى راسو كلو ببقى حمحمه فارس وبقوم وبعيط
ويصرخ . ! الجرس داك كسرنا بالحجار دفنا فى الأرض . !
قلنا دا ربنا ستر ساكت تاني مابلقا يجن لينا صحى صحى . .

ثم كان زين الدين والولد الآخر يرتقيان قمة العالى متقافزين فما قطعا
إستدارة الرمل حتى أسرعا وجريا وأصبح همنا فيهما قادمين علينا حاملين
تلك الإستثارة المتعجلة وجميعنا نموج بالتوقع الكبير ويؤلم همنا إفتقاد اللمحة
الصغيرة فينا إلى مايمكن أن يحدث ويهم ويأتيان به . قدما وجالت أعينهما
متوزعه علينا وقاما وهبطا صدريهما وإستندت فى قعدتي ممطاً رقبتى من فوق
الرؤوس أو آن لهث زين الدين بالخبر وملأ الرجال الجو بينى وبينهما بنهرات
السؤال فأصبحت فى جمر من الرغبة فى التأكد مما قالاه .هبوا لهما قاعدين
ولم يتوقف صراخهم يتململون على أصلابهم رافعين إليهما صدورهم
وجموحى يدفعنى أن أقوم أو أن أحبو حولهم فأصل إليه لو يتركون له الفرصة
ليراني لو يسمعنى لو يتركونه ليقول لى . تناوله سالم ولزه لهم مابين البساط
والسجادة، وتمسكوا بيديه حتى ركزت نظراته المتبهدله على حاج أحمد وذكر
لهم إرسالهما إياهما ، هنالك وراء منعطف الشارع تركاهما متتبعان حافة
الطينه على مهل والولدان جريا ليجدا الضو يأتيان به إلى المخزن فينتظر لهما
ثم يذهب أحدهما ليجد سلامه .

قال سالم للولد الآخر شيئاً ولمسه فإنصرف مرتبكاً وبقى زين الدين
وسطهم يرتعش بتلك المعرفة المقلقة ولايجد منهم فكاكاً ولا أجد إليه سبيلاً ،
أدرى بالرجال ينشطون بالخبر فيتبادلون نهرات السؤال كأنهم يحتجون على

شيئ يحدث لهم من غير إستعداد منهم . ينطقون مسايل الجلابي فأنتفض ، يلوكونه مرددين مستنفرين كأنهم لن يرضوا بأن يعيدهم مخلوق من قعادهم وتراقدهم إلى ذلك الشعور المهزوز المظلم بأعماقهم أشواطاً إثر أشواط من النكران والإرتعاب . أن ينسرق الوكيل إليها من وراء ظهورهم ليسوق منها كل الإهتزاز والظلام ويأتي بها إليهم ، هذا الذى يقوله الولدان عما كشفه هناك، ومصطحباً جابر لينظر وليعلم معه فلايكون لفرد منهم خردلة من مجال لأن يغلق عينيه الآن ويقول بمالا يصدقه هو المتفهم الذى يرى بعين المدينة مالايرونه .

أحدثه الغبى بذلك عصرية أمس فيغالطنى ولايصدقنى وأصر له بما أحسسته أمام الرجل ، كلما دفعنى إلى السكوت رفع وجهه المطبوع بإستيائه وإستصغاره يقطع غبشة الدكه وينزل إلى الوديان يجوس فيها باحثاً عن المسايل التى لم يشهدها ولم يتكلف أقل الإهتمام بما ظلوا يذكرونه عنها . يضحك لأقوالهم ويخفى معرفته وتتقوى به معارفه يوماً بعد يوم أينما حكم بشكاويهم ولم يجد الدليل . كما يقول لرجل البوليس ذهب إذن يتصيد لمن يظنهم ذابحى أغنامهم ليجد ماوجده ويأتي وجابر يثيران هلعهم الآن كأنهما كشفا فيها سر الأسرار .

نهض سالم على أمشاطه ووجهه إلى الحافة القمحية أسفل العالى فخفف هرجهم وتابعوا أدق ميلاته ورمشاته ثم هب محمدين إلى جانبه ولم يبق مهلة حتى مشى على خطى الولدين وبدا أنهم سينهضون جميعاً لولا إشارة سالم ، هدأوا فأخبرهم أنهما يصعدان العالى ، لم يزل محمدين عند موقفه المتطرف منتظراً لهما مختفين عنه بالإنحدار . أن يحاول أن يفرض على زيدان أيضاً حكمه لأنه يحمل بندقية ويكتسى بالكاكى والأشرطة الزرقاء على ساقيه ويصحب معه أحد خفراء العمدة فيسمح له الرجل القديم بكل شيئ ، يحوم على زرائبه كما يتمنى يخرج ما أخفاه الذين يقول عنهم ويحمل منها الحصان والحمار وينفخ صدره راجعاً إليهم فى الدكه يتبجح بطريقة ما بأنه

ألمع منهم وأشجع يقظة عليهم.

شب الحصان حافة الرمل المقوس ومشى عليه محمدين وبان أذني الحمار عند لمعان حبيبات الرمل متزايد البيان طوال إنهماك محمدين والوكيل متصارخين بكلام لم يبلغنا على البعد وجميع الرجال واقفون متأججون بفناء الصبر وضغط التساؤل فيهما وفي رباطات أحمالهما المتدلية على جوانب راحلتيهما. إن لم يكن المربوط زيدان على حقيقته ذهبا يتغولان عليه تحت تهديد البندقية يحفران على مآثره عند الدغل ويقبضانه على طول النهار يفعلان به مالم يفعله به أحد، ليس لشيئ إلا لأنه لم يجد غيره هنا في الدكه يرمي عليه الدليل، ولأنه ينفذ الآن ماخطط له شهوراً وأول أمس وأمس أن يفي بوعده لهم ويثبت لهم كفاءته في أن يفعل لهم مالم يستطيعوا أن يصدقوا به، ذلك الذى لم يجدوا على مر السنين الشجاعة لأن يفعلوه ولم يكونوا ليجدوا الشجاعة لفعله من دونه.

لم يترك محمدين يده رافعاً إليه عينيه بالعجب ووجهه هو المنهك معتدلاً إلينا قادمين متتابعين على خطى الولدين فلما إقتربوا تحرك الرجال وجروا البساط والسجادة عن ظل الزنك وتفرقوا ليدخل الحصان بينهم ويجئ متثاقلاً بأثره حمار العمدة. كثر الكلام وربتوا على المحمول ولم أقترب مثلهم ثم عمتني الرجفة وفي الربكة إلتحمت بزين الدين ولم أتفوه بشيىء مقبوضاً عندهم أوان أنزلوا لفائف الدمورية المربوطة بحبال السعف أكياساً ضخمة وشلخ الوكيل فوقها ساقيه مربعاً ساعديه. ربط محمدين الحصان والحمار بشوك الدكاكين وعاد ولم يتوقفوا عن الكلام ولم يكن الوكيل لهم مثلما كان كل يوم، مباعداً ساقيه فوق الأربطة التى لم يلمسها له أحد هازاً لهم رأسه منغنغاً بخافت القول الوجيز كأنه من هناك خلف التلة قد أعد إمتناعه عن الإفصاح عما سيسألونه وكمم فم الخفير وترك على لسانه فقط قدومهما من المسايل والتخزين عند الضو والتلميح الباهت بما سيحدده سلامه عن

المسروقات فى الغد . فى إرتكازه على البندقية مباعداً قدميه متخدراً بالصلابة والإصرار على ماقرره وجابر من خلفه قللوا أسئلتهم لهما وهبط عليهم قبول وتفور فأحنوا رؤوسهم ولوهلة لم يتكلم فرد منهم ثم نادى الوكيل على الضو .

الرنة اللانهائية وقعت لنا وسرت فى إحساس الكل وبعدها صمتوا تماماً والرنة تحتد وتثب آتية على فراغ الأرض منتشرة بالتبدل إلى الأزيز والشخير ممتلئة فى فضاء البلدة . بالتلفت كان شريط الغبار النامى قائماً على قرمزية السماء كأنه خيط من لهب منجدع علينا بدرب الشارع جهة المدينة . فى أنف التل ترمد الغبار ومرقت العربة مندفعة بسواد قطعة الطينة تحت مرآنا ودخلت فى الإنحدار وهدرت فى العالى وإبتعد هديرها وتقطع غرباً منا ، درنا مسرعين فرأيناها تلف شوك الشفخانة جنوباً وتتدحرج على المساحة بين منزل الطبيب والمبنى وبردت كإنما أنقطع بها النفس على حافة الصدى .

فتح الضو ضلفتى المخزن فإنكشف مردوم الجوالات والصناديق والصفائح وفى الداخل البعيد جرجر فى أدواته ثم رفع يده فإستقام الوكيل من على بندقيته وإبتعد بساقيه من رباطات الدمورية . حمل أغلبهم حاج أحمد وعديل ومحمدين وحتى الضو نفسه وقبع الوكيل ملتصقاً بركن الضلفة العالية حتى خرجوا جميعاً وعندها عارض يديه بالبندقية على كتفيه وراء رقبته وجر نفساً ولمعت وجنتاه بأثر طفيف من بشاشة . ماكنت لأتذكر عمر وقبضت صعباً على زين الدين والضو يحشر البساط والسجادة ويجمع الضلفتين وأسمع إنطباق القفل والعصرية لم تعد عصرية ، فى إنكبابهم على الأرض أراهم يسهرون الليل مثلى يحتارون على مافى رباطات الدمورية مما يقوله الوكيل .سمعت إسمى وفزعت وأشار زين الدين إلى يد الضو المفرودة بالحبلين وطرق رأسى بالخوف عما كنت على وشك أن أرتكبه فأسرعت إليه وتبادلنا وسط إضطرابي الحبلين والتعاريف وعدت من بينهم إلى زين الدين

سيتفرقون الآن أو يذهبون بكليتهم إلى الشفخانه يسائلون الطبيب ماذا

يقول الحكيمباشي وسنذهب معهم وسيجتمع عند العربة آخرون فيخبرونهم بمافى المخزن ويصبح للبلدة بأجمعها همان تسهر عليهما مغالطة للصباح . ثم وقع مالم يكونوا يتوقعونه منه هو الذى رسم تمنعه على وجوههم قبل مدة أصم وأبكم . أن يستوقفهم من نفسه ويحنى رأسه ويعيد ركز البندقية وبالضغط والجهد يقيم لهم وجهه ويقول الخبر فيتمنع كل منهم ومنا بأعماقه أن أحداً لم يذكر جواد حاج أحمد ولن يتجرأ فرد أن يذكره بسوء وأبداً لن يحصل هذا أمامهم . جلجلة النهرة عائدين عليه كانت تسمع فى أطراف البيوت لو أصاخوا إليها أهل الدكه ، ودفعنا أنا وزين الدين رأسينا بين أيديهم ولم يهبط برأسه ولم يرفع ركز بندقيته وجابر بعيداً عنهم قابضاً الحصان والحمار ، وبالصلابة المتمالكة أعاد فى قلب دائرة الإستماع والغروب مصاب الجواد فى المسايل جنباً إلى جنب مع رباطات الدمورية التى عاد بها إليهم تاركه فى كثافتها مرمياً .

لا أذكر بالضبط كيف تفرقوا لكنه ركب حصانه وأعطاهم ظهره شاقاً الرواكيب تحت السواد المتكثف وإمتزج مع البعد وكنا أنا وزين الدين والحبال المعلقة فى يدى فى طرف السوق الشمالى ونتف الضوء تتسرب فى سواد الشرق وزين الدين يقول ذلك الذى يقوله عن أنه سيذهب إلى بيت جابر يسمع مع أبيه حقيقة المسايل ويضرب ساعدى يكرر لى أن أرافقه . الحبال المتدلية من يدى تقف حاجزاً بينى وبينه أعى بالجواد والمسايل وأتشوق حامياً لأن أجد حامد هو وحده كفيل بإيجاد السبب ، فى خطفة ينسج الفرصة النادرة للمرور والوقوف على كل الشيئ فى كل مكان . أقبض على زين الدين ويشتغل همى فى المسايل ولا أملك ألا أتحرق لها . أما أن يكون زيدان الذى طاف تلك الكثافة سنيناً وعقوداً لاحصر لها باقياً لم يقبض الوكيل غير شبحه وأنسرق من تحت يديه متلبداً فى فجاج مسايله ، أو أنهم ، أهل الدكه ، يدرون جميعاً بنهايته فيها ويحفظون مع ذلك نكرانهم وإرتعابهم مصممين على الإبتعاد والسكوت رغم مصاب جوادهم ، كأنهم يتقولون

عليه زيدان الذى فعل بالجواد والرباطات وتوارى عن الوكيل الناكر عليه حقيقة وجوده . لابد أن يكون أحد طرفيهم على يقين غلط ولو يتشجع زين الدين لأعجب الأولاد لو نلق نظرة واحدة أخرى فيها فندرى بحسباننا نحن هذه المعرفة الثالثة .

– زين الدين ؟ . عليكم الله يلاكم نشوفو . ! خلاص ماتقول لى خايف ؟ . أنحن نحرسك ونمسكك . ! من هنى تمشى تكلم حامد أنا بكلم ناس شين وعلى وعباس . . بدرى بس نشوفو ونرجع الضحى نحضر فكين الجابوها ديل والدلاله . ! خلاص كويس آ؟

أعرف لم أترك له الفرصة حين إنفغر فوه . وبحلق وإرتجف فى يدى ثم سكن رامياً بنظراته ، خوفه ذلك الذى يحجب عنه رغبته فى أن يرى ، ولن يتمنى أن نراها من دونه . أعرف علىّ الآن الجرى عنه فيتأكد له أننى سأكسب على وشين وعباس ولايملك عندها ألايخبر حامد ، ولن يستقر حتى يخبره ثم سيجد نفسه يهب مبكراً ويجرى إلى الطاحونة . ربت عليه وسرت ولم أدر وجهى له أعرفه ثابتاً حيث تركته وقطعت الشارع فدخلت وراء البيوت ، سأعطى عمر حباله وأتخلص منه فأحوم العشاء عليهم أوكد لهم قبول زين الدين وحامد بالمسير . فى تسرعى لم أع تماماً بصمت المنازل حتى إقتربت من دارنا ووقع السكوت على شعورى دواماً ممدوداً بلابداية أو نهاية كأن سكان الحى ماعادوا يعيشون فيه ، موجودين بقلب الفراغ شتات من جلمود واحد كان صخاباً وإنتفى فمات كل الصوت .

أو كأن زيدان لم يعد منفياً فى الكثافة بل صاحب الوكيل الذى ذهب يقص أثره فيحضره ويطلقه يتمشى بطرقاتهم ليدخل دورهم ويتمدد بهواء حيشانهم ترياقاً مراً مشحوناً بوعيد القصاص . رفعت كتلة الشوك ووضعتها بعدى وخلعتنى ضحكة عمر ، وقعها المنهنه أفزعنى وأفرحنى وحافظت على موقفى لفترة وظل على كلامه حتى قطعت ستنا تدفقه ، جلية النبرات

مهتاجة بما أعلمه جيداً ، غضبها المشتعل فى نومها ويقظتها ، أربعة أيام بالتمام تتابعنى به قادماً ومنصرفاً كأننى عملها المفرد وشغلها الشاغل .

ـ وطا دى كلو فتشتى جارى ورا الناس بلاشغله قال تعرفى كل شغل ! . سمح ! . والله كن فى نيتى بطاله مايدوكم كلو كلو ! تقرو بس ليل ونهار . . الوليد زى المهووس ! . باكر نهار وقت جليل يجى تركب تطلع معا لجدك وأخيتك . . تاني بعنينك ديك ماتشيفى الدكه دى لمن المدرسة ينفتح ! . الشغله الولا عندك هنى دى تلقا ياهايف . !

أستند أنا إلى عيدان الحاجز ويرتكز هو على الحوش مائلاً لها متجاذباً بمالم يتمه من كلامه ، ثم قرقرت ضحكته ورمى برقبته على كتفه وفى إعتدالها على مقعدها عند حنك النار أمالت له رأسها فنظف حلقه ثم إتزن جسمه وأتت كلماته هادئة محتقنة بالإستغراب المتبين لما يركن و راءالذين يخابرها عنهم .

ـ قلت ليك الزول زى المهبوش جا جارى إلا « العمده وينو ؟ . عمدتكم روح وين ياجماعه ؟ » . . قالو ليهو الجماعه فى باب مختار « قدام تلقا » . . العمده عاط ليهو « البسأل ياتو ؟ » . . جا علينا بهبش فى الحوش . . الوليد أحمد قام ليهو من الصندوق تقول مابشيف قعد فى البرش قعد وبتنهد . . مشو يجيبو ليهو الشاى قال ليهم مادايرِ . . عينينو طايرين علينا خليناهو لمن العمده كلما . . « عربيتكم جا ياالحكيم ؟ » . . بس تقول درب الكلام وفتحو ليهو . . قال كلامات وحدين كن قعدتي سمعتيهم . . « أنا بقول لسلامه مادايرِ يسمع لى ياالعمده . ! أنا حدثتو زى دا قلت ليهو دا قتل دا لكن دا ماقتل دا . ! مصر برضو على رايو يقول لى طيب ودا القتلو شنو ؟ . إنتو عاملين عارفين علمكم

دا وينو إن كان ماقادرين تعرفو لينا دا القتلو شنو ؟ . العيب يالعمده النحن ماحممناهو ! . ناسكم قال يرجعو لينا يقولو لينا الأول لقينا كدمه فى كراع دا ولافى إيدو ماجونا بدرى . ! وأنا جنس محل فتشت عليهو إلا الكراع ماهجس لى قال أمرق المركوب أشوفو . . كنت قلت ليهم فى الخلا هناك ياهو عضاهو دبيب ! . يقولو لى قال سكران ودا شايلو المسافه ديك لمن وقع . ! ماياهو مماكب عضاهو داشال ليهو دمو كلو ربطو فى عروقو ودخل فى لحمو كلو عفنو عليهو إتقطعت وإتسممت . ! وبرضو حاشرو فى المركوب الماخلانا نشوف الورم ياهو ولا الموية والدم الفى كراعو . . ماشى متحاوم على الوقعان دا عضلاتو ما إتربطت إتشدت بالسم والوجع البقتل داك . ! ويلاعلى المضربه فى المسكين حقكم . . وراسو دايش ليهو وقع هنا فى السنسنى وعنينو صغرن ومخو إتخرب قال لدا كلاماتن يوم المسكين ماسمعهم . ! قاعد مقاربو قال بسمعو بدل يبقا منو بعيد الموت جايبهو مع الجن سوا وبالكعوبيه ديك قبال مايفوت سل الخنجر راح فى النحر شالو ياهو لحقكم فوتو معاه ! لوكنت شفت الكراع ماكنت قلت ليكم من الأول ياهو الدم الفى منخرينو دا سم الدبيب ؟ ! » . .

كأننى لم أكن لأتنفس إلا على قرقرة ضحكاته وستنا تركت صحافها ودقيقها ورمت بكوزها على الأرض وأوقعت بيديها على رأسها وحسبت إنها ستبكى فإنكمش مابداخلى وإنضغط صدرى بمحبوس توقع إجهاشها ، وكأنه هو يعلم بأنها لن تبكى أو أنه سيتم لها مايظل يرويه مهما بكت وأمعنت فى البكاء للذى حصل فى الخلاء فى بطن الليل للمسكين الضائع منهن الفائت على يديه هو الملدوغ المتفتت ، فقط لأنه فى فكرهن لن يرضى له أن يعيش فيحوز من بعده على إرث المكاسب أو أن يوصل أحداً بأقل القليل مماوعى عنه .

ـ قام جاري من محلو داك قال بلقا سلامه كمان بوري . . توا فكي محمود كمان شبكا مع العمده . . والله هدو ضحكونا الناس الليله يا أهلي ! . فكي محمود سألا العمده « إنت ياعمده ياتو منكم الزول يجي ليهو كن بدوري بشكي وياتو الناس بمشو ليهو كن بقا ليهم مصيبه ؟ الزول الجابا خبرهم دي براك بوين ؟ » . . العمده ترا كلام دي ولابعجبي . ! قام فكي يعقوب بوري في فكي محمدين قال . . « الدومه بقول ماشي عجلان بقدام بيت العمده قال داخل عليهو كدي لاقاهو ود دفع الله . . سألا مالك عجلان ياأب الدومه ورآهو . . الناسين هناك ميتين لقيتهم ! . يا ؟ ! . . لاحول ولاقوه تعال أجري ياأب الدومه نورو سلامه ! هناك على الشارع جايي من تحت شافو الوكيل . . جرو عليهو والوليد وقع ليك فوقو قال . . أب الدومه بقول لقا زولين ميتين في الخلا ! . الوكيل بغزى عصايتو في وطا وبهزى راسو . . لاحول ولاقوة ياناس شنو ؟ ! إتنين آخرين كمان بلا الجواد ؟ ! ياتو جواد ؟ ماجواد حاج أحمد السرقو فاتو بيهو ! . كدى تعال يالدومه نكتب أقوالك ونمشي دا قدر والله ! . سلامه طبعا ماوجدتو . . ساقهم وفاتو ولمو الناس في البوليس تبعو فاتو للخلا والعمده قاعد ولاداري » . .

صبت ستنا دقيقها وزادت عليه ماءها فوق النار ورصت عدتها أمامها ثم إعتدلت إليه فرفع وجهه ضاحكاً وألقيت بالجبل وإقتربت منها وجلست على التراب . جمع مسبحته وفروته في يده اليسرى ودلى يده اليمنى على جنبه وحافظ على إتزانه مواجهاً عينيها المرفوعتين إليه .

ـ فكي محمود ترا قاسي للعمده ولابريحي ! . هوب قام قاعد على كرعينو وإيدو في العمده . . « والله ياعمده إلاتورينا هني كلنا ديل ياتو النمشو ليهو كن بقا لينا شي وياتو النشكو ليهو كن

دايرين نتظلم ؟ ! ياتو ياعمده وياتو ؟ » . . سكتو كلهم تب زى كلامو مويه بارد وصبو فوقهم . . عمدتهم مسنط كدى رفعا راسو يازول . . « والله يامحمود . . محمود هياخى . ! والله أني ذاتي مانعرفى . . ترا قالو لى أقعد قضاياك بجوك ! . الناس الإيعرفو قضاياهم براهم ! . ياخى والله من اليوم الحوهنى داك بضابطهم وبوليسهم . . بنو نقطتهم قدام محكمتى وشقو سوقهم دى وخلاص ! . جابو عيشتهم داك وأمورهم ديلاك حقات المداين . ! جو كمان وليداتهم المعروفين والولامعروفين ولمو فيى عيالنا ديل الجدد . ! من يوم داك أني قاعد داهو فى بلدى البحكمو وولانعرفى البيقا فوقو كلو إلاكن جابوهم لى فى دفاترهم . . بوليسهم بس داهو بسوى كلو شى وأني أطرش وأبكم الإيلزوني . . قال زول كدى ساكت ولاتسألا وولاتمسكى وولا تهددى ! . إلابينه فوقو باين هو والبوليس ينشبكو ! . ناس البلد كل زول يسوى البدورى ولا الأني وكباراتهم نقولو ليهم ننصحوهم بيهو داك . . هيا محمود ياخى ! . أني العمده معمده وهمالبوليس مداهم بوليس « . .

قرقرة الضحك لم تفارقه وتفوهت ستنا بكلمات متقطعة ودست عوداً فى نارها ثم إنحنت فلمع الوهج فى جبهتها وعندئذ سمعنا مناداة أم الفضل على عمر ، صوتها المكسر متقادم من فوق الحيشان متكاسل بلا إنقطاع ، والتقط عمر الحبلين فلمهما إلى فروته وأنصرف إلى قطيته . لن يرد عليها لكنه سيربط العجل وسيلف حوشها ويدخل إليها يعيد عليها أخبار الجواد والعمدة . وأنا لابد لى من أن أجد سببا أقوم به من عند إنكفاءها على النار لأجدهم ، ولأدق رأسى الآن على حيلة ما .

المسايل

كنا فيها وظل العالى ينسحب عن الوديان والطيور بلغت كفايتها من الصداح فلم يتحرك بها غير سقوط الشمس بين فجوات الخضرة والتشابك متضاعفة البقع متراجعة خلف الظل بإتجاه البلدة كلما إتضح قرص الشمس بأعلى غبشة الدكه وفى السماء المغبرة على الجبال . توقفنا عند حفرة قعر الترس متداخلين فيما بيننا وتسيم الصبح يلفح ويغرز جلودنا ويلتصق بدفين الرهبة فى أعماقنا ، يصطرع بدافع التقدم وإلحاح الإستطلاع وكل تبسيطات وتأكيدات الإختبار التى تتواقع فينا من حكاية زين الدين ، وفى نفسه من تقطعه وتنهده كأنه يتنازع بالإنكار والتشكك فينقل إلينا حرفية لحن جابر بالكلمة الأخيرة عما يوجد فى الكثافة ويحل عن نفسه هو لوازم القيام بأية مبادرة فى هذا الشأن . تحاشيت حامد ولم يحاول أن يتذكر فيقول كم كنا جبناء أول أمس وأنهم لن يتركونا على أية حال ، فقط لينتهوا من تفريق رباطات المسروقات وينفضون أيديهم عن فلقه بدلالة أدواته وعفشه ، الآن ولم يحضر له أحد ولن يفلح شيخ الربع أن يجد له قريباً ومأمون يتخلى عما قاله ، والفاتح نفسه قد ترك العربة لصاحبها وإختفى فى مدينتهم فتبدلت سواقتها وماعاد شيئ مثلما كان .

من أماكننا حول إنطماس حواشى الحفرة القديمة تقاربنا وأصبح حامد فى موقفه أول أمس ولازمه زين الدين متعثراً بنتوءات الجروف والشجيرات النامية فيسنده حامد . يرمى إليه بوجهه ويذكر له جابر والوكيل والحصان وحمار العمدة بظلال المسايل نهار أمس يجوسون فى النواحى باحثين عن الحوار ولايستثنون المنعطفات الجبليه ولاربكة اللالوبات ويدلفون إلى غزارة الشحيط ، ربطا الحصان والحمار بسيقان الكتر وأطعم الوكيل خزنة البندقية عشرة ظروف لامعة كما حشا هو جماليته ظرفاً وعلقها على كتفه وإتبع

خطواته . لالوبة لالوبة فتشا جذوعها وبحثا على أية آثار وإجتمعا على توقفات المراكيب الصغيرة وتجاريها فقالا الكثير عما يمكن أن تأتي منه وقعات التخليع فى الجهات الثلاث ، وعين الوكيل كعيني زين الدين على الشحيط حيث رسمت له بالعيدان .

تفرق الشحيطات الأولى تكثف محتوياً علينا وسمعت إصطكاك أسنان شين وحدجته فلما رآني كأنه تمالك نفسه وتنفس براحة فسكت فمه وأعاد زين الدين يده فى يد حامد ومن يسارهما علي وعباس ونحن على أعقابهم . يجلس له الوكيل عند الترس يحدثه بصوت منخفض بآرائه وتوقعاته ويشرح له ما أوضحته له ويصر فمه فيحكي له خوار الإنخناقه ويعيدها لمسامعه وعلى صلابة مجرى الترس يحك له واجهة الشحيط ومصب السيالات فى الحفرة ، وضع كل تحـــرك فى نصابه ثم قاما فإحتضن كلاهما بندقيته وإنحنيا محيطين بالإخضرار هو يساراً والوكيل عند إلتقاء السيالات الحجرية بالشحيط ، صاعدين .

إنفرش رمل السيالة وتشكلت نثار الأحجار المغسولة من المرتفع وبعد المنعطف مرقنا فى زاوية إنصباب مسيل ثالث وإرتجفت أعضائي بالبرد وتراقصت سياط الغصون أمامهم ووراءهم وفوقهم ولم يعد هنالك إلاحفيف النسيم فى الإخضرار . زفير حمار العمده المعروف لديه خرج من باله وإلتصق بالشحيطة ولبرهة تسمع حتى تكور فأصبح خوار الوكيل له بالترس شماله وقدم فوهة البندقية ثم شق إرتماء الشجيرات خطوة خطوة كإنما يحلقه أنفاسه وعيناه لسواد قعور الشجر جاحظتان لأجله ذابح الغنم اللئيم إبن اللئيم . قطع زمناً ولم تؤلمه عيناه ولم يفقد منى النفس أن يجده هو ثم كشت الأغصان وثبت جامداً ، ذلك شماله أو غربه ، تحولت فوهة بندقيته غرباً خلف الشحيطة ، المتلصص اللئيم منسرقاً عنهما هارباً ، كشت الأغصان بخفه وسط الفروع الساقطة ودب متمهلاً ليقع عليه ظل البندقية الزاحف وينزل برمل ركن الشجرة وفى خطوتهما الواحدة دس فيه الفوهة وأندست

فيه فوهة بندقيته وضرب قلباهما ملتصقين بالرعب الغبى ، ثم وقفا يلعنان حمار العمدة .

يشير له زين الدين بإتساع المجارى وإنعطافها عند التشعيبة وبعدها لفة ولفة وفى الثالثة يكون الموضع ، على طريقهما تدانينا أنا وعلى وتأرجح الغصن راجعاً ورنت صرخته متبعنا فطار الطائر بصخب وهرعت عبر الغصن لأجده منبطحاً فى البياض تملأ حبيباتها فمه ولاينهض ولزمته فأحتضننى ، مسحت عنه التراب ووصلنا لديهم فى إنتظارهم . شتمه حامد وقبض زين الدين ثانية ولمدة حاولنا أن ننسى إصطكاك أسنانه حتى دب الوكيل وجابر متساندين فى سيالة بالصدر تحت ظلال الشحيط وإنتقلا للأخريات وإلتقيا بنا فى الحيران الكثيفة والبرود المتناهى والسواد يخيفانى ولايخيفانهما . حيث أشرت له كمصدر للخوار المختنق يختفون وسيوجد على الأقل آثار ذبائحهم ، وقدما صاعدين فلم يشتما رائحة العفن المختمر وبذلك لم يكونا فى عجلة للبروز عند الإنفراجة ولاحدثهما يقين مسبق بوقف الدوران المنهمك على سواد الإخضرار على مثلث الجهات . رفع حامد الفروع ولم يقد معه زين الدين وفصلتهما الغصون لبرهة ، والعفن يزكم إحساسى كله فلايعود للوكيل وجابر وجود ثم يختفى زيدان معهما ويسرع على ويتبعه عباس وجررت شين فشلنا بالفروع ورميناها وكانت الحفرة والحفرة الثانية أسفلهم والجسم المنتفخ عشرة ياردات أخرى على الرمل .

توغل البرد بأعماقى وشددت بشين يدى ولم تمكث نظراتى طويلاً فى الحفرة ولاكشفتهم كلهم محدقين برمادية الإنتفاخ المبرقع أحمر وأبيض وأرقش ومسوداً ، ثم هبط شين فجلس. كم وقفوا لاحسبان لدى ورمشت عيونى بلا صبر وخلت أن ضياءاً شع فى النهاية على صخرة فى المرتفع ، كان حامد دوننا متحرراً من زين الدين سائراً بمدالج الحفرة القصيرة باركاً يبحث جوفها . فارس المكتسى بلفات الدموريه لم يصهل ولا أرجف رقبته ولكنه فارس ، راقداً بجنبه منتفخاً عفناً كأنه جيفة مجدوعة بالعتمور ، ربما

لو جاء حاج أحمد بسرجه وسمع خطاه لأنتفض شامخاً على قوائمه المتجادعه بالإنتفاخ ولتحاشى عليه اللجام والركوب لولا رباطات الدمورية التى تلفه وتشده مانعة عليه الإرتعاش. همس على :

— لاحول !. ورم ماكدا ياعثمان ؟ !.

هززت له رأسي ودنوت من حامد فرأيت عتب العيدان وموائع منبهل التراب من فروع الشحيط وفى قعرها رقائق صناديق الشاى المعقصة المكسرة. أطللنا فى الحفرة الثانية من بعيد ماسكين أنوفنا والتسلخ الأرقش من عفن الصوف يبطن جوانبها والبرد يجلد ظهرى حتى أقشعر وكأن رأسي تدور فأقع فى عمقها ، أتراجع وأتطاول إلى أسفلها حيث الحوافر المطموسة بتدفق التراب وأتابع على مسيل الخور مجرى جرهما العفن المتفخ تلك الياردات إلى نتوء الأحجار. كلما تابعت الملسة حتى إنتفاخه وتريثت على سمنته وتسلخه تعود بي البرودة فألقى طرفى إلى زين الدين وزين الدين مثلهما منصم لكن جابر لاينصم وفى كلام زين الدين حاضراً وحاكياً رغم شمول الصمت. يقفان بظل الشحيطة يلهثان بشيئ من عطش ، يتهبب صدره منزعجاً ثم يستنشق ويأخذ راحه ويستنشق . يلمسه ويستنشق فيتنفس الوكيل طويلاً وتتسع عيناه.

— عفانه آآ ؟.

— شيف كدا .. بدفنو جلودهم وروسينهم ترا .!

حاما حول الشجرتين وكرا إلى الظل وإحتارا ، فى خطوط تمرجح فروع الشحيطة تاه وعيه بالعياء وخط ببندقيته خطوطاً ثم همدت حركته. مد إليه البندقية وقبض على العود وجره فإنتزعه من الإرتكاز وأطاره الفرع هابطاً به فإنبطح فى رمل الظل. جرى إليه الوكيل ونفضه ومن موقفهما ثبتت نظراتهما كالمصروعين فى الأنف الأبيض الأرقش بارزاً من الرمل كأنه مصبوب هناك على وضع الإستنشاق. حفرا فتبخرت فيهما العفانه ولم يكن

لهما الخيار وفي العصرية مرقاه مشدوداً بسياط الشحيط . وفي الشجرة الثانية نزعا عوداً آخر يركز فرعاً فكشفا رقائق خشب الصناديق وإندفنا بموضعها في الحفرة الأولى ليستخرجا ماجمعاها في تلك الأربطة . يحكي زين الدين أن جابر وأباه يتخالطان طول الليل ، هو مصر على أنهم أرادو اختزين ثوب الدمورية ولم يجدوا له فراغاً في الحفرة الصغيرة فلفوه عليه ، وأبوه يقول إنهم أرادوا حمايته من الماء حتى يعودوا له يخرجونه ، وليس مالم يعودوا

سأصفه لهما في منزلنا وأم الفضل ولأحمد فضيل ليصفه لبسوس وسيجلسهم على بروش المقهى وقت مازاروه يقسم لهم بالمولى أنه عرف منذ البداية وأخبر عديل بما سيفعلونه بجواد حاج أحمد لأنهم لايستطيعون إحتماله . التقط حامد حجراً وقذفه فضرب بأعلى البطن وتنن صوت الإنتفاخ فعم الموقع ولم يغب عن سمعنا . لاأزال على الظن بان ذلك الصوت هو الذي أعلن لهذين الحـــدأه والغراب وجود الجيفه بالجوار إذ إلتفتنا فوجدناهما قابضين متباعدين على نتوء الأحجار يرمقان سمنة الجواد بعيون صفراء ويتمايلان بالرغبة والحيطة من لبوسه . كأنهما في قعدتهما يتغزلان بجماله ووفرته ويملآن جناحيهما بالعزيمة للإنقضاض عليه . نزل علي في الحفرة الصغيرة ونزل أيضا عباس وتشجع شين فلحق بهما يرفعون من عمقها عيونهم البراقة إلى الضياء المنتشر ويضحكون . وسيقول عديل بأنهم لو يتركونها فقط كما كانت لما حصل لجواد حاج أحمد ماحصل ولاأضطر الناس للتجمع ضحى كاليوم بالسوق يجرجرون سلامه من خوابي ونسته بدفاتره وأقلامه يرفع أقمشة وحدائد ومراكيب وماخالفها في وجوههم ويصرخ لهم ولمن يدعي أنها تخصه أو يطلب إبتياعها أو شراءها .

سوط شيحط طويل جلد الحدأة وهوى ثم طار ودار منخفضاً وجلس بأحجاره يرمق الغراب كأنما بأعين غاضبة ويزيد الغراب في النعيق عليه .

الجيفة تبعد تناظرهما للحظة ويجلد سوط الشحيط الحدأة فيهوى ويطير ويحف منخفضاً ويداني الغراب فتتوزع يقظته بين لسان الفرع والنعيق والجيفة . لسبب ما وجدتني أضحك ولم أغادر أمرهما ، لسان الفرع أصابه وتقبض بأحجاره وفي منتصف التعلق عن الوقوع مال الغراب بالنعيق عليه وشبك الحدأة على أحجاره ثم كانا معاً يتخابطان ويتفتتان على الرمل إنفجار غريب من الحقد والحمق .

وقفنا أنا وحامد ننظر إليهما يتكوران بالألم والفناء ثم مابرح أن هدلت قمرية فإختفى منا أمرهما والجواد وغادرني البرد فجأة وبقى فى أذني ممزوج تضاحك الصبية والهديل . أمسكت بحامد وجاء فى بالى جليل والتوزيع والدلالة ثم وقعت الشمس علينا فى الإنفراجة ورفعنا رأسينا أنا وحامد نتابع خيوط الضوء تتسرب وتنتشر نحونا فى فجوات الدغل ، إلى ظلام مسايل زيدان الجلابي ، من السطوع فوق البلدة ، تيارات إثر تيارات ، تيارات منعشة من النور والدفء .

جامعة الخرطوم
مطبوعات قسم التأليف والنشر
الكتب العربية التى صدرت

الكتاب	المؤلف
«١» دراسات فى الأدب والنقد	الاستاذ معاوية محمد نور
«٢» قصص وخواطر (الجزء الثانى)	الاستاذ معاوية محمد نور
«٣» الحركة الفكرية فى المهدية	د. محمد ابراهيم أبو سليم
«٤» الضرائب فى السودان	د. على أحمد سليمان
«٥» معجم المصطلحات القانونية	د. سعيد محمد أحمد المهدى
«٦» اجراءات تحرير الاقتصاد السودانى	د. عثمان حسن سعيد د. عبد الرحمن الطيب على طه
«٧» تاريخ دارفور السياسى	الاستاذ موسى المبارك
«٨» البحر القديم « شعر »	الاستاذ مصطفى سند
«٩» سالى فو حمر « قصص »	الاستاذ جمال محمد أحمد
«١٠» نماذج من الأدب الزنجى	الاستاذ على الملك
«١١» تأميم المصارف فى السودان	لجنة الدراسات الاقتصادية بنك السودان
«١٢» دبلوماسية محمد	د. عون الشريف قاسم
«١٣» الصهيونية وعداء السامية	د. محمد ابراهيم الحردلو
«١٤» كوبا الجزيرة التى احببت	د. يوسف بشارة
«١٥» طبقات ود ضيف الله	د. يوسف فضل حسن
«١٦» أعمال الليل والبلدة	الاستاذ ابراهيم اسحق

دوريات :-

المجلة الطبية « لسان حال الجمعية الطبية السودانية »

تصدر قريباً :-

الكتاب	المؤلف
«٢» الصحافة السودان فى نصف قرن	الاستاذ محجوب محمد صالح
«٣» الأرض الآثمة « مترجمة »	الاساتذة : صلاح أحمد ابراهيم وعلى الملك
«٤» بعانخى « مترجمة »	د. متوكل أحمد امين
«٥» الفكر الاسلامى والفلسفات المعارضة	د. عبد القادر محمود
«٦» مصادر الدراسات السودانية	الاستاذ قاسم عثمان نور
«٧» القصة الحديثة فى السودان	الاستاذ مختار عجوبة


المؤلف
ابراهيم اسحق ابراهيم
• من مواليد قرية ودعه – مديرية دارفور عام ١٩٤٦ ،
• تلقى تعليمه الأوسط بمدينة الفاشر والثانوى بمدارس الأحفاد ،
وتخرج فى معهد المعلمين العالي عام ١٩٦٩ .
• قدم قبل هذا الكتاب روايته الأولي « حدث فى القرية » ،
• صمم الغلاف : الفنان
حسان محمد عثمان .